إلى سعادة الأستاذ الدكتور سعيد الطواب

المجموعة التي ذكرتها في حفلك ولم
تتناولها بالدراسة، ربما لعدم
عثورك عليها

مع وافر تحيتي

٢٠٠٦/٩/٢٦

نور رحمة

قصص من النوبة

هذه المجموعة فازت بجائزة اتحاد الكتاب
عام ٢٠٠٢

حسن نور

الإهـداء

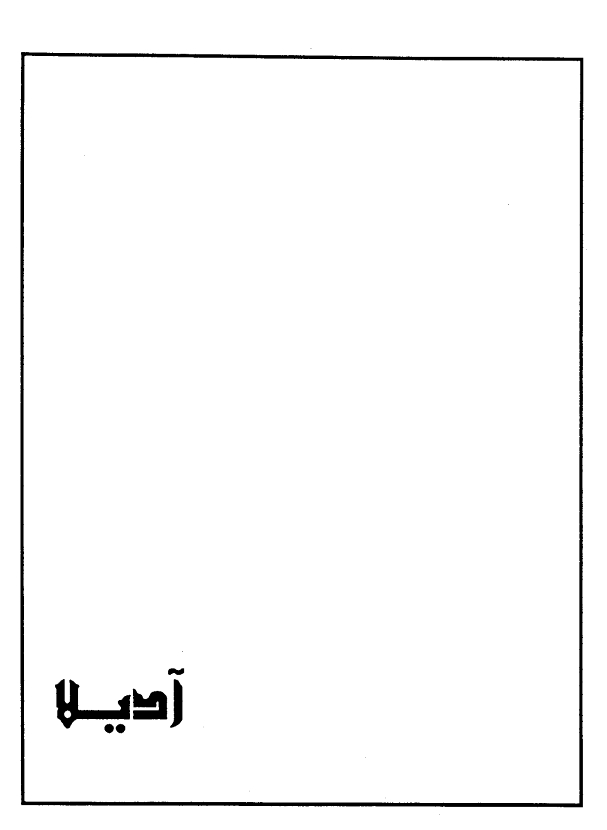
إلى أرواح كتاب النوبة وشعرائها

- محمد خليل قاسم
- محمود شندى
- عبد الدايم طه
- زكى مراد

مازلتم أحياء بيننا ، فأصحاب الأقلام لا يموتون

حسن نور

لا يكـاد الزغـب الأصفـر ينمـو أعلـى الشـفاه إلا وتصيـح عليـه النداهة بأعلى صوتها فيشد إليها الرحال، وعنـد المـوردة ، وقبـل أن يعتلي ظهر البوسته (الباخرة) المتجهة إلى الشمال يأخذه ناس النجـع إلى أحضانهم ، بينما تملأ الدموع مـآقيهم ، وعندمـا تطلـق البوسـته صفيرهـا مؤذنـة بـالرحيل ، يلوحـون لـه موديعـن ، وهـم يـرددون " آديلا ووهبيبه" (تعود بالسلامة يا حبيب) ، ثـم يولـون وجوههـم شـطر النجـع الـذي يبـدو وكأنـه غـارق في أعمـاق الوحشـة و .. الموات .


آدیلا

آديـلا *

كل خميس كان شلالي النوتي العجوز ، ينتظرنا بمركبه عنـد المـوردة .. قبل أن يدق الجرس معلناً انتهاء الحصة الأخيرة التي لا نستوعب منهـا شيئا، إذ تكـون عقولنـا سـارحة هنـاك مـع رفقتنـا ، نلعـب الهندوكيـة ، أو أول جاكود، أو نجري إلى النهر في وقت الهجير لنرمي إليه بأجسادنا التي أرهقتها حرارة الصيف ، فنغطس ونطفو ونسـبح كضفـادع صغـيرة ، أو نجلـس إلى جداتنا في الليل نستمتع بحواديتهن ، ونتعجل دق الجرس حتى لا ينزل علينـا الشيخ عقابه لو ألقى علينا سؤالاً بعد طول شرح لأبيات من الشعر الجاهلي الذي استغلقت علينا معاني مفرداتـه ، فنحـاول إيهامـه بانتباهنـا بـأن نظـل نحملق في السبورة تارة ونشعلق أعيننا بشفتيه تارة أخرى ، حتى ينطلق رنين الجرس فتنطلق صيحاتنا المحبوسة .. هيه .. معبرة عن فرحة مكبوتة وجـدت متنفساً ، فانطلقت تستقبل حريتها ، غير مصدقة انفلاتها من الأسر .

كل مرة كانت أعيينا تلتقط القلع الأبيـض مـن البعيـد ، فتتقـافز قلوبنـا فرحة ، وما أن نقترب من النهـر حتـى يعـانق آذاننـا دفء صوتـه المنسـاب بإحدى أغانيه التي يسـلي بهـا نفسـه وهـو يعـالج أحبـال القلـع المربوطـة في خشب الساري ..

(*) آديلا : تقال للمسافر ومعناها تعود بالسلامة .

أنا ابن أبوي سيد جبايل الكنوز

جلبي لين حبوب

لكن وجت الشدايد جسور

أنا .. شلالى ابن الكنوز

ارتدت أعيننا فزعة هذه المرة ، وشعرنا بقلوبنا تسقط هلعة ، فلا القلع العالي أطل علينا من البعيد ، ولا الصوت الدافئ انساب إلى آذاننا حتى بعد أن أصخنا السمع ، وكذبنا أعيننا واتهمنا آذاننا بالصمم ، ومشينا في وجل إلى الموردة .

ماذا حدث لشلالى إذن .. ؟ لم يتخلف مرة واحدة منذ أن اتفقنا معه في بداية السنة الدراسية .. نجري إليه . فيحتوينا بطن المركب .. نتقافز حوله فرحين ، تنفرج شفتاه ضاحكة وهو يردد : اهدوا ياعكاريت .. بس يا عكاريت .. نسأله عن معناها ، فيجيبنا مقلدا إيانا .. عكاريت جمع عكروت ، وعكروت مفرد عكاريت ، ثم يقبع بجوار الدفة ، قابضا على ذراعها بيمينه بينما اليسرى تمسك أحبال القلع ، المفرود ، تدفعه الرياح فتنساب المركب فوق سطح الماء حسب ما يوجهها شلالى بإدارة الدفة شمالا أو يمينا ..

قبل أن يكبر قرص الشمس ويرتدى جلبابه الأحمر القاني ، ويسقط وراء هامات الجبال الجهمة الرابضة في الغرب تكون قد رست أمام المعبد المطل على النهر .. تجري أرجلنا فوق الصقالة ونحن نتصايح :

- سلام آليك ووشلالى

- في انتظارك باكر

- إياك تيجي جبل المغرب

- والأحسن ما تاجي

فيرد وقد ضيق من حدقتي عينيه ، فيتكرمش جلد وجهه حولهما : والله آل ما ييجي جبل المغرب ما انتظره يا جريو[1] منك ليه .

- لكن ليه ما جا اليوم .. ؟

كان السؤال يمور في صدورنا ، والقلق يأكلنا .

- يكون مريض يا اخوانا ..؟

- أو يكون العمدة كلفه بمشوار لأسوان .

ظللنا هكذا نخمن سبب غيابه ، وفي الحقيقة كنا نسلي أنفسنا لنبعدها عن دائرة القلق الذي سكننا .. لم تستقر رؤوسنا لحظة .. تطير أعيننا شمالا وجنوبا علها تلتقط قمة الساري من بعيد، لكنها ترتد خائبة .

---

(١) الكلب الصغير.

- طيب يا اخوانا إذا ما جا نعمل إيه ؟

- نرجع الداخلية .

- على جثتي .

كركعنا ضحكا على الطريقة المسرحية التي حاول أحمد عواض تقليدها وهو يقول جملته .

ثم تساءل بعد ما سكتت ضحكاتنا : طيب ليه ما نمشي ؟

قلنا : إنت مجنون .. نمشي من جورته للدكه[1] في عز النار ..؟

قال : والله أنا بامشي لجهنم ، لكن مستحيل أرجع الداخلية .

(والله لك كل الحق، فإننا نعيش خمس ليال ونصف اليوم السادس نعد ثوانيها ودقائقها وساعاتها على أمل الوصول إلى هذه اللحظة التي نجري فيها إلى مركب شلالى ، ليحملنا إلى قريتنا المعششة في قلوبنا ، بكل شيء حلو يربطنا بها) .

أدرك بذكائه ترددنا بين السير معه والرجوع إلى الداخلية ، فأراد أن يحسم الموقف ويكسبنا إلى جانبه ، خاصة وأنه لن يستطيع أن يقطع المسافة المقفرة التي تفصل بين القريتين وحده ، فقال وهو يغُذ السير نحو الشمال : أنا مشيت ، ال عاوز يجيى معاي أهلا وسهلا .

---

(١) قريتان بمنطقة الكنوز ، تفصل بينهما مساحة صحراوية جرداء.

في أقل من اللحظة وجدنا أنفسنا نسير وراءه، تضرب أقدامنا الدروب الرملية التي تفصل بين الدور الشامخة، نحتمي بظلالها من لهيب شمسنا القاسية، أو نسير بحذاء النهر لنغترف من مائه بأكفنا ونرش به وجوهنا ورؤوسنا ، أو نعب منه حتى تنتفخ بطوننا .

قال أحمد عواض مقلدا بشير محمود : إذا لم تمت بنار الشمس فسوف نقتل بذنب عقرب ذكر.

فقال بشير مغتاظا : ما تموت يا أخي وتريحنا .. ندفنك هنا في الفضا ونجرا على روحك الفاتحة، ونمشي ناخد عزاك في البلد.

وظللنا هكذا نصعد نحو الدور تارة ونهبط لنسير بمحاذاة النهر تارة أخرى حتى شعرنا بالتعب يسري في أوصالنا، وأن حرارة الشمس ألهبت أجسادنا فأحالتها لقطع من الجمر المتقد .. جرينا إلى جدار يرمى بظله على قطعة صغيرة من الأرض ، رمينا فيه أجسادنا المكدودة .. توسدنا أذرعتنا .. تمدد بشير محمود على ظهره ووضع ساقا فوق ساق، قلت له مغتاظا : كمان حاطط رجل على رجل يا ابن الكلب ؟

كركع ضاحكا، ثم قال متسائلا : با لله عليكم ما أفضل من السجن في الداخلية ..؟

لم أكن منتبها لسؤاله ، فقد سرحت عيناي في الدور التي تحوطنا . كلها مغلقة الأبواب والصمت الرهيب يغلف كل الأشياء ، واللون الأصفر الكئيب ارتدته التلال والصخور ، ورمال الدروب ، والجو خانق يلتف حول النفوس فيكاد يزهقها .. لا شجرة ولا زقزقة عصفور ، ولا حتى فحيح ثعبان خرج خطأ من جحره .. ما لهذا الموات الذي يجثم على صدر النجع .. أعوذ با لله، أعوذ با لله، ربما تكون أطلال عاد وثمود.. أم ماذا..؟
- إيه .. مالك .. وتانوسما [1]..؟

تلفت حولي وقلت : هاه .. لا .. لا .. لكن دار مين دي آل نحن نايمين في ضلها ؟

قالوا مستنكرين : يا أخي إحنا عرفنا النجع عشان نعرف دار مين ..؟

ثم قال عباس مرسي وهو يضيق حدقتي عينيه ويظلل عليهما بكفه اليسرى : انتبهوا .. واحدة جايه من بعيد ..

قال أحمد عواض : يمكن واحدة من ناس النهر عجبتها وجايه تاخدك .
قال عباس : لا وا لله أتكلم جد .

تقترب .. وجهها في لون الطمي .. اعتدلنا .. أسندنا ظهورنا إلى الجدار ، يتدلى الزُمام من جانب أنفها ، وعقد السافا يلمع حول جيدها ، بينما كانت الحلالة الفضية تصدر رنينا خافتا متوائما مع خطوها :

---

(١) هل جننت؟

غطت جانب وجهها بجزء من شُقتها قبل أن تقف قبالتنا قائلة :

- مرهبا امبيساجى [1].

- مرهبا أنسّا [2].

عالجت ضبة الباب الصغير الذي تكأكأنـا بجـواره بقطعـة مستطيلة مـن الخشب كانت تتدلى على صدرها. وارتها الجـدران .. جاءتنـا مـن الجـانب الآخر قائلة : إمبيسانا كارتوبى[3].

استقبلنا هواء المضيفة وظلها البارد. احتوتنا أرائكها الناعمة .. أحسسنا بأرواحنا ترد إلينا .

خرجت إلى الحوش وجاءتنـا بطبـق خـوص كبـير امتـلأ سـطحه بـالتمر والفيشار، وإناء كبير ملئ بمزيج الأبريج والليمون .

أسرعت إليها وحملته عنها ، وما أن استدارت خارجة حتى رحت أعب منه.. سبني عواض : كفاية يا بهيمه .. إنت أصلك إيـه .. إحنـا مـا معـاك تعمل حسابنا ..

ضحكت المرأة ثم جرت خارجة وجـاءت بإنـاء آخـر ، وضعتـه أمامنـا وهي تقول : اشربوا .. خير ربنا كتير ..

---

(١) مرحبا بإخوتي.

(٢) مرحبا بالأخت .

(٣) تعالوا ادخلوا دار أخيكم.

وقبل أن تخطو خارجة إلى الحوش نصحتنا ألا نقلق .. فقد أرسلت لزوجها توصيه بسرعة الحضور .

قلنا : ما كان فيه داعي لازعاجه ، خصوصا ، وإننا ما حنجدر ننتظره.

سألتنا : إنتم ماشين وين ..؟

قلنا : الدكه .

ارتسمت علامات الدهشة على وجهها ثم قالت : معجول تمشوا للدكه برجليكم ..؟ لا .. لا.. أبدا ما معجول .

تساءلنا : ليه ما معجول ..؟

قالت : انتوا ماتعرفوا أن الطريج مهجور وفيه دبيب، كمان المسافة بعيده خالص وعلى العموم أنا خلاص جهزت الغدا وحالا ياجي أخوكم وتاكلوا سوا.

وقبل أن ننطق بحرف تركتنا وخرجت، تناولت تمرة وضغطتها بأضراسي فأحدث تكسرها صوتا: كركش .. نظرت داخلها .. نفختها والقيتها في فمي..

قال لي عباس هامسا : كفاية يا عبيط .. بعدين ما تعرف تاكل.

قلت له : إنت صدقت واللا إيه ؟

وجدناه يقف بيننا . شاب كما عود الزان .. طويل .. نحيف .. في حوالي الأربعين .. حرّقت الشمس جلده فصار أسود مقددا .. في عينيه الواسعتين بريق عجيب ..

قال : أهلين ولاد الجبايل .. حبابكم (١)

لم تغادر عيناي وجهه .. البسمة مرشوقة في ثغره، لا تفارقه . أسنانه بيضاء. صغيرة .. مرصوصة بجوار بعضها كعقد لؤلؤ ثمين .

سألنا بعد أن جلس بيننا : لكن صحيح أنتم ماشيين للدكه ؟

قلنا : نعم .

قال : أصله ما معجول .

حكينا له حكايتنا ، من أول ما ضرب جرس آخر حصة ، وعدم حضور شلالى بمركبته للموردة ، إلى أن دخلنا داره .

قال : برضه ما معجول تمشوا من جورته للدكه ، إلا إذا كنتم ناوين على الانتحار .

قال بشير محمود وا لله يا أخي الانتحار أهون من بيات الخميس والجمعة في الداخلية .

ثم استطرد عباس مرسي : إحنا بالعافية نتم الخمس أيام ، فكيف يعني نجعد أسبوعين ..؟ دا يا اخي مستحيل .

---

(١) مرحبا بكم .

قال مضيفنا الذي لم نعرف اسمه بعد : طيب طيب .. نتغدى الأول وبعدين ندبر ليكم أمر الركايب .

- ركايب ..؟

سألنا متعجبين .

قال : المغرب على دخول ، والدبيب كتير، والمسافة طويلة .

وتركنا إلى الحوش ، وبعد قليل تناهى إلينا صوته : خدوا راحتكم . ونظرنا إلى بعضنا وتساءلت أعيننا .. مين دا ؟ . لاحظنا أنه لم ينطق باسم وحد منا ، ولم يسألنا عنها ،

طمايه هوى .. ووطمايه .

هذا صوته أيضا ، ولكن من تكون طمايه ؟ لابد أنه اسم زوجته . لم نسمع صوتا يجيبه ، فعاد إلينا مرحبا : أهلين أهلين ولاد الجبايل .. حبابكم عشره .

قلنا : أهلين ابن العم .

قال وهو يضع باطن كفه على صدره : أخوكم إدريس بشير عثمان .. مزارع .

- اهلا وسهلا .

ثم بعد فترة صمت قصيرة قال عباس مرسى يقدمنا له : عوض بحر ، بشير محمود ، دهب فنجرى ، ثم وهو يشير إلى صدره : عباس مرسى ...

كان الرجل يردد قائلا لكل منا : بالجوده ..

بينما قال عواض لعباس هامسا : طظ ياسيدي. يعني عباس بن فرناس ...

تململنا من تآكل الوقت ، وتسرب القلق إلى نفوسنا فازدادت حركات الأيدى والأرجل ، لاحظ الرجل ذلك فقام خارجا وهو يزعق مناديا : طمايه .. يا طمايه .. المره آل مخها طاجج راحت وين ..؟

وما هي إلا دقائق حتى سمعنا أصواتا متداخلة تأتينا من الحوش ، ثم سمعنا صوتا ينادي : ياهوى . ياهوى [1] أدركنا أنها زوجة إدريس فخرج إليها ، ثم ما لبث أن دخل علينا مرة أخرى ، وبصحبته امرأتان سلمتا علينا، ثم أخذت إحداهما أحمد عواض إلى حضنها وهي تردد في حنان: أحمد أواد .. ما عرفتني .. أنا جدتك حبيبه عواض .. عمة أبوك ..

فرح بها أحمد كثيرا وراح يحتضنها ويقبلها وهو يصيح : طيبرى أنا و .. إنا هال [2] ؟

---

(١) هكذا تنادى المرأة زوجها في قرى الكنوز ، خاصة في حضور الآخرين إذ لا تصرح باسمه علانية.

(٢) كيف حالك يا جده؟

قالت تعاتبه : يا وليدى أنا حجية كبيرة وما اجدر أمشى للدكـه .. ليـه انت ما تيجى عندى من المدرسة وتسأل عنى ..؟

قال عواض خجلا : أنا غلطان ياجده ، لكن ما كنـت أعـرف دارك .. صدجينى ..

ثم راح يغرس عينيه في وجههـا المستدير الأبيـض ، والشـلوخ المحفـورة على خديها وشفتيها الموشومتين ، باللون الأخضر تمامـا كوجـه أبيـه الـذي يأتيهم مرة كل عام من بلاد الشمال البعيدة التي تأخذ كل رجال النجـع .. يمكث معهم أياما معدودة ، ليعاود الكرة ويسافر ويغيـب لندخـل في دوامـة الخطابات وسؤال الأحبة الآتية من هناك .. عامل كيف .. وازاى صحتـه ، وبيشتغل واللا لأ .. و.. ونحصـى الأيـام الباقيـة مـن العـام ، فنراهـا طويلـة طويلة ، أسأل أمى : ليه أبوى مسافر بعيد يا أمى ويغيب عننا ؟ ..

– أكل العيش يا ولدى .

– وهنا ما في عيش ؟ .

– أيام النخيل والزروع كان الخير كتـير ، لكـن اليـوم مـا في أكـتر مـن الحصى والرمل .. ثم تزفر نارا وتقول وهي تنكت الأرض بجريدة نخل :

منهم لله الكفرة

– مين يا أماي ؟

- اللى غرجوا أراضينا ونخلنا وعوضونا ملاليم بدل ما يصلحوا لنا أراضي بعيدة عن المويه ..

قالت حسيبة عواض لإدريس بشير تستعطفه : اتركهم يتغدوا عندي يا إدريس الله يراضيك .

قال إدريس يعني انت يرضيكي يكونوا عندي في الدار وأتركهم ، وبعدين الغدا عندي جاهز ، وهم مستعجلين ، اجعدي انت اتغدي مع طمايه .

قلنا (غير جادين) : ياريتكم تعفونا من حكاية الغدا وتتركونا نمشي بدري.

قال إدريس : عقبال ما تتغدوا تكون الركايب جهزت ، توصلكم الدكة المغرب بإذن الله .

وقبل أن ننطق بكلمة أردف قائلا : لو ما الركايب ماحتجدروا توصلوا جبل العشا .

قال أحمد عواض : طيب إذا كان ولابد من الغدا فياريت تعجلوا ، عشان نوصل جبل الظلام.

هب إدريس واقفا وخرج وهو يقول : نطمن على الركايب الأول .

* * *

بعد أن امتلأت بطوننا جاءتنا طمايه باللبن الرائب ، ورفعت الصحاف الفارغة من الإدام واللحوم ، أمَّنا إدريس لصلاة العصر ، كذبنا عليه وقلنا إننا على وضوء ، كاد عباس مرسى يفضحنا وهو يكتم ضحكه .. ضربته بكوعي فرفسني في ساقي .

السلام عليكم ورحمة الله . السلام عليكم ورحمة الله ...

أخذتنا الجده حسيبه إلى صدرها وهي تودعنا .. اعتلينا المصطبه لنمتطي الركائب .. لوحنا بأيدينا .. شيعتنا دعوات حسيبه عواض: الله وراكم ، الله جدامكم .. وكلمات إدريس بشير .. ديروا بالكم زين .

تعالت أصواتنا بالشكر ، وإن شاء الله نلتقي باكر .

قال : سأكون في انتظاركم .

انتظمت ضربات الحوافر فوق المدق .. ابتلع الفضاء آخر كلماتهم : آديلا .. آديلا ..

خور رحمه

إعتراها الحزن فـازدادت التجاعيد على صفحة وجهها العجوز منذ جاءت البوسته بخطاب أبي .

احتجز الخزان المياه الآتية من الجنوب أمامه .. ملأ النهر وفاض على حوافه..

أغرقت الأرض التي كانت تعطينا الخير ، فمات نواح السـواقي .. كل شيء صار قاحلا فشد أبي وكل رجال النجع رحالهم وسافروا إلى الشمال.. يتوحش شعوره بالغربة فيرسل لنا لنسافر إليه .

أخذتها أمي إلى أحضانها .. قالت .. شهر واحد يا أمي وأعود إليك.. مسحت الكف المعروقة عن وجهها الدمع المنسال .. جرت أمي إلى حجرة الديو-كا (١) وجاءت لها بالشاي الممزوج باللبن

- إتو سليمان (٢)

جرت قدماي فوق رمال الحوش الناعمة .

- إيو وإندى (٣) ..

- إستعد لتسافر معي إلى أبيك ..

بكيت حتى نز العرق من مسامي.. ضربت الأرض بقدمي. صرخت: لا.. لا أريد .

(١) غرفة الكانون (٢) ولد ياسليمان (٣) نعم يا أمي

رمت جدتي – أنّاو – شقتها فوق جسدها وجرت إلى بيت خالي (آنجى)

آنجى .. قالت لأمى وهي تجتاز عتبة الدار : سوف يسافر أخوك إلى أسوان بعد أيام ..سيركب معك القطار حتى هناك ..

اعترت الدهشة وجوههم لما عرفوا أنني رفضت السفر إلى القاهرة .. وضع ساقا فوق ساق ثم قال مقلدا طريقة ناس البنادر : أما ولد أبيطه صهيه .. السنه الماضى كانت هيطير من الفره .. تيب إيه اللى هصل السنه دى .. ليه مش آوز يسافر ..!

* * *

كان ثانى يوم لنا في القاهرة .. نطرت أمى جسدها من فوق السرير ذى الأعمدة الأربعة .. أوقدت وابور الغاز فانتشر وشيشه. حمل البخار الهارب من بزبوز البراد رائحة الشاى المغلى .. في المرآة التي تعلو الحوض رأيت وجهي لأول مرة .. عرفت أن عينى بلون الطمى وكذا بشرة وجهى .. قال لى أبى – أمباب – سيد رجال الكنوز .. تعال معى لترى معالم المدينة .. حلقت إلى السماء فرحا .. كان الجلباب جديدا وصندلى لامعا .. احتوت كفه كفى .. أهرول .. سألنى : أتحب أن تكمل دراستك هنا ؟

الشوارع لامعة .. المركبات كثيرة .. سريعة .. البنايات عالية .. أعلى من نخيل السكوتى .. والبنات كالحور العين اللاتى نغنى لهن أن يتركن القمر في ليالى الكسوف : يابنات الحور سيبوا القمر.

سألنى : ماذا قلت ..؟

اقتربت منا سيدة عجوز .. البشرة بيضاء مهدلة والشعر قصير رمادى .. يتبعها كلب لولى عجوز .. سألت أبى وهى تشير إلىّ : إبنك ؟

لوى عنقه إلى الناحية الأخرى .

سوف أعطيك جنيها كل شهر لو تركته لى .

إيه . ماذا ..؟ أعطيك جنيها لو تركته .. يترك من ..؟

جاءت وراءنا تجرى .. زعق أبى قائلا : لأ .. لأ..

خافت فولت الأدبار .

دارت رأسى وأنا أسير حاملا جثمانى على ساقين واهيتين .. أبى هو الآخر يسير بجوارى حاملا جثمانه .. نسير في صمت وراء الجثمانين .. زعق أبى فمزق صدر الصمت الجاثم فوق صدرينا : ياولاد الكلب ، وبصق على كل ناس الشمال ..

* * *

اعطتنى أمى ورقـة خضـراء ، قـالت لى إذهـب إلى السـوق لتشـترى .. نبشت في ورقة ما أمرتنى أن اشتريه .. على الورقـة الماليـة أطبقـت كفـى.. بين عربات اليد الكثيرة المتنـاثرة علـى الجـانبين تقـافزت عينـاى.. التقطتنـى عيناه.. اقترب منى..

سألنى : ماذا ستشترى .. يمكننـى مسـاعدتك .. آه ، وعلـى فكـره .. خذ حذرك .. السوق هنا كله حراميه .

مد يده .. التقط طاقيتى مـن فـوق رأسـى قـائلا : ضـع النقـود هنـا في الطاقية وأطبق يدك عليها جيدا ولا تفتحها إلا عند الجزار ..

صرخت .. لاحقتنى كل تعاسات الدنيا .. بكيت وأنا أعدو راجعا من حيث أتيت تسبقنى عيناى وصراخى .. حرامى .. حرامى .. سرى في دمى كراهيتى لكل كلاب هذه المدينة الذين التفوا حولي وراحـوا يضحكـون لما عرفوا حكايتى .. التفوا حولي .

وراح أحدهم يردد : بربرينو .

رد عليه الآخرون وهم يدورون حولي : هِبو هِبو.

- دخل الجنينه

- قطعوا له ..

ثم أمرني أحدهم أن أقول حمص ..

قبل أن أبصق في وجهه قرفي وسخطي قلت همص ، فراحـوا يـدورون حـولي ثانيـة كرحايـة تفتـت مـابقي مـن كيـاني وهـم يعيـدون مـارددوه .

بربرينو .. هبو هبو .

دخل الجنينه قطعوا له ..

ثم اختطف أحدهم طاقيتي التي صنعتها لى أمى - إنـدى - ونقشـت لى عليها.. نخلا وطيورا ومركبة حبلى بالريح: راحوا يتلقفونها فيما بينهم، وأنا أدور بينهم كثور مربوط في ساقية .. قال يحثنى للرد على سـؤاله : لم أسمع ردك.

قلت : لا .. أفضل أن أظل هناك .

فجاءنـا بأمتـار القمـاش الزفـير وحبـات البطـاطس والبرتقـال وقوالـب الحلاوة الطحينية وأقماع السكر وقطع الصابون .. سهرت الجارات مع أمى يعبئن المقاطف ويحكن أطرافها بقطع القماش أو الخيش ويأمرننى بأن أكتـب عليها بالقلم الكوبيا بعد أن يندينها بالماء .. النوبة .. خور رحمه ، وتولـت البنـت عواضـه الـتي اخترتهـا زوجـة لى ليلـة الأمـس ونحـن نلعـب "عريـس وعروسة" أن تميز كل مقطف بقطعـة قمـاش حمـراء لئـلا تضيـع بـين طـرود المسافرين ..

كانت النوافذ بلا زجاج ، والمقاعد خشبية خشنة آلمت إلياتنا ، وعجلات القضبان تجرى فوق رؤوسنا . انتشر الصداع في الرأس والعينين .. اختلطت نداءات الباعة الجائلين بصوت احتكاك عجلات القطار بقضبانه فتداخلت كل المرائي . صارت في لون السواد .. اغمضت العينين . من فوقنا ومن أسفل منا هاجمنا الصقيع .. تلاصقنا لنستجدى الدفء ..

فوق حجرها كومتنى .. بأنفاسها وذراعيها غطتنى .. في الشلال لملمنا أشلاءنا المتهالكة .. حملناها مع مقاطفنا وألقيناها فوق أرض الموردة .. ثلاثة أيام و لم تأت البوسته .. نفد الآوين [1] .. الذي أعدته لنسد به غائلة الجوع خلال أيام السفر العصيبة .. خالى أحمدانى جاء يبحث عنا .. كان نقطة في خضم الأجساد المفترشة أرض المرفأ .. كادت هامات الجبال تبتلع قرص الشمس القانى .. التقطته عيناى فجريت إليه .. أخذنى إلى صدره .. قالت أمى -إنديو - بعربيتها الخاصة : وهشتينا يا هماره .. ضحك وجهه فبانت أسنانه اللؤلؤية .. أكسبت وجهه الابنوسى جمالا أخاذا ..

كنا نود أن نقدم لك العشاء .. لكن الزاد نفد .. ذهب غير بعيد وجاءنا بسمك مقلى وعيش شمسى .

---

(١) الزاد

سألني عن رأي في المدينة الكبيرة .. قبل أن أمط شفتي في قرف التقطنا صوته .. إهمداني هوى [1].

التفت فتهلل فرحا : أهلين عواض .

في عناق حار ذاب الجسدان ، كف كل منهما تخبط ظهر الآخر .. قال العم عواض وهو يشير إلى الجانب الأيمن من النهر .. تعلم أنني استقريت هنا في دابود وأنت قريب مني هنا ولا تجتني .

ربت آنجي – خالي – على كتفه معتذرا ..رأي العم عواض لفة الورق ذات البقع الزيتية فتكدر وجهه ... تساءل : ممن اشتريتم السمك ؟.

انزعج ، فعرفنا أننا أكلنا قشر بطيخ مقلي .. جرى خالي إلى البائع وأمسك بخناقه . بعثر عظمه ونطح رأسه وهو يجعر في غيظ : غشاش إبن كلب ..

التف حولهما المسافرون .. أصروا أن يستردوا نقودهم .. ولول كحرمة ماتت زوجها .. وَىْ وَىْ وَىْ.

ما الذي حدث للبوسته .. متى ستجيء لترحمنا من هذا العناء ؟ .. يقتلني الشوق إلى النجع.. أوحشني كل ما فيه.. أرضها المجدبة.. وجبالها الجهمه.. شيوخها وحريمها وأطفالها الذين لم يدنسهم الزيف .. صحيح أن

---

(١) يا أحمداني

النهار هناك طويل يقضيه الشيوخ في صحن الجامع أو الأرض البراح بين الدور .. يلوكون أحاديث مملة أو حكايات معادة مكرورة ، وهم يدخنون اللفائف المحشوة بالبانجو الذي يقايضونه بحفان الشاى والسكر مع البشاريه الذين يجلبون الجمال من غرب السودان .. أما نحن الصغار نلعب غير بعيدين عنهم الهندوكية أو أول جاكود بالكرة الشراب ، ولن أنسى ما كان آخر يوم قبل سفرى إلى أبى .. ضربت الكره فطاشت وضربت رأس سكورى العجوز ، خاف الولد دبيره الذي كان قريبا منه فرحت آخذها فسبنى قائلا : ياابن الكلبه .. أبوك في المصر ومين بيحطي أمك بالليل ..؟ قلت بعد أن التقطت الكره وجريت مبتعدا : أنا ياهماره .. فضحك العجوز.. ومن حوله، فظننت أنهم ضحكوا لأنني سببته.. في اليوم التالي علمت أمى ما كان منا فسبته قائلة : أجوز فاجر.

وفي الصباح .. في كل صباح قبل أن تخرج الشمس من مكمنها وتتدحرج على صفحة السماء نجرى إلى الأرض التي تفصل بين نجعنا ونجع الخميساب ، بعد أن نعلق المخلاة القماش التي تحوى اللوح المعدني وزجاجة حبر وريشة وجزء القرآن المقرر وقطع الخبز والبيض المشوى في رماد الفرن، لنلتف حول الولد نوجو تود [1] الذي يكبرنا ببضع سنين ويتميز عنا بطول قامته وعرض منكبيه ووجهه المحروق، وبطء حفظه لسور القرآن ، وقبل أن

(١) إبن الجارية

نبدأ خطواتنا نحو نجع المدرسة نخلع أحذيتنا التي تكرمشت جلودها فصـارت أنشف من حجارة الجبل وكلحت ألوانها فباتت بلا لون ، ثم نجـرى حفـاة عبر الدروب غير خائفين طالما كان معنا نوجو تود الذي استغل زعامتـه لنـا فيأمرنا بعد أن نجتاز آخر بيت في نجعنا بأن يحملـه كـل منـا لمسـافة يحددهـا حتى نصل إلى المدرسة .

علمت عمتى دهيبه النور بذلك فانتظرت حتى حان وقت أوبتنا فاختفت وراء جدار ، ورأت بعينى رأسـها نوجـو تـود يمتطى ظهـر أحدنـا كحمار ، فـأطلقت لصوتهـا العنـان : إتـو رهمـه [1] .. هـل يركبـك هـذا الزربون كمـا يركـب هـذا البغـل ؟ .. ثـم راحـت تسبه ، تدعـو عليـه .. يانجُد .. يا زربون .. يـاجرى .. إجشـين إك كـلر يـا أوبورتـى [2]، وحثته بالتراب.

فوجئ بها نوجو تود ، فترجل وراح يعدو نحو النجع وهو يقهقـه عاليـا مستفزا عمتي التي قبضت على معصمـى وهـي تزجـر .. كـل شـيئ انقلـب حاله .. رماة الحدق صاروا أتعس الخلائـق بعـد أن أغـرق الخـزان أرضهـم، والعبيد يركبون أسيادهم وأرضنا صارت لا تنبت إلا الصهد والحصى .

* * *

---

(١) ولد يارحمه (٢) يا عبد ، يا قذر ، ليأكلك عقرب ، يا رماد.

دهيبه النور .. شقيقة أبى الصغـرى .. يعاملهـا كإبنتـه وحبيبـة روحـه، فيخصها دونا عن أخواته بنصف جنيه كل شهر ، وفي كل طرد يرسله لنا يخصها بطرحة أو شقة [1] أو مركوب ...

قالت لى لما سافرت أمى – إنديو – جدتك حاجيه كبيرة لن تقدر على خدمتك ، فتعال لتقيم معى حتى تجئ أمك ..

ضربت خالاتى صدورهن وقلن: لا .. ابن أختنا يعيش عندنا حتى تجـئ أمه.

خفت أن تغضب عمتي دهيبة النور إن وافقت خالاتى، وأنا أعلم حبهـا لى، و لم أذهب لأعيش معها، فاخترت العيش مع جدتـي حاجيـه الـتي تعمـر دارنا الكبيرة .. في الليل أتوسد فخذها الجاف كعود الحطب ، وأرسل عيني إلى السماء لتسبح مع النجوم على صفحتهـا وأسـرح بفكـري إلى الأمـاكن التي أسمع عنها في حكاياتها الكثـيرة .. "فانـا ونجـد" و "راضيـة وجوبـا" .. تقـول : كومـا كومـا الله [2] وتبـدأ حكاياتهـا ... نبــى مهمــد دوجــور صلى [3] ..

---

(١) توب أبيض شفيف ، تلفه المرأة النوبية على جسمها ، مثل السارى الهندى.

(٢) لفظة تفتتح بها الحكايات ، مثل كان ياما كان في الحكايات العربية .

(٣) صلى على النبى .

وتظل تحكى حتى تحس بثقل رأسي ، فتحملني إلى العنجريب ، وتبسط فوق جسدي سجادة مصنوعة من الخرق الملونة .

في الصباح توقظني عمتي دهية النور .. تجئ مبكرة من نجع إفدينا لتعد لى البيض المقلي في السمن بعد سلقه وخبز الكل - ديو أو الكريد [1] إذا ما نشطت وحلبت بقرتها وخضت اللبن ، ولما تجئ خالتي بحريه لتعد لى طعام الإفطار أو الغذاء وتعرف أن عمتي سبقتها في ذلك تزعل من نفسها وتتمتم بكلام لا أسمعه ، فأقول لها مداعبا : لن أتزوجك لأنك كسول ، وسأتزوج عمتي دهيبه النور.

تقول وقد انفرجت شفتاها عن بسمة حلوة حلوة : أبوك سيد الكنوز ترك كل البنات واختار أختي زينة النجوع ، فاقتفى أثره تكن أحسن الرجال في زمانك ، فأضحك معجبا بكياستها .. جاءت صباح هذا اليوم .. كنت لم أزل ممددا على العنجريب مفنجل العينين .. أطلت الدهشة من عينيها .. قلت : لن أذهب اليوم إلى المدرسة ياعمه .. زوت مابين حاجبيها وقالت : قم أيها الكسول وافعل ما شئت بعد أن تجئ أمك .

قلت : ستجيء اليوم ، والبوسته سترسو في موردة المحرقة قبل انصرافنا من المدرسة ، ولابد أن أكون في انتظارها.

---

(١) لبن رائب .

قالت : نعم .. نعم ، والله كنت ناسيه .

(الحمد لله .. لم أذاكر دروسي بالأمس .. لقد استغلقت على تماما .. آه لو أنقطع عنها نهائيا).

شربت شاى الضحى ثم انطلقت إلى الدرب المتدلي نحو النهر .. سرت بحذائه جنوبا إلى نجع المحرقة ، وعيناي معلقتان بصفحة بحر النيل .. أرهف السمع علني التقط صفير البوسته آتيا من البعيد ... التقطته فشددت الخطو ..

كان المرفأ مزدحما بناس النجوع الأخرى .. كلهم جاءوا ليعرفوا أخبار ذويهم الذين طالت غيبتهم ، وأخذ ما قد يكونوا قد أرسلوه لهم .. لم تطاوعهم أنفسهم بالبقاء حتى تغيب الشمس ، ثم يجيئون إلى دارنا .. من سطح الباخرة أطلت أمى .. إندى .. لوحنا لها هاتفين :

آديلا .. وطأت أقدامها الصقالة .. أطلقت النساء زغاريدهن لما رأين بطنها بارزة أمامها ..

مالت رأس الولد نوجو تود على رأسي هامسا :

هل عرفت من الذي يجب أن يغطى أمك ليلا ..؟

استجمعت شجاعتي وقلت له : اسكت ياعبد يازربون ، ثم جريت إلى أمى .. أخذتنى بين ضلوعها ومسحت وجهي بقبلاتها .. سألتها عن أبى.. ضمتني إلى صدرها .

– مبروك ووعواضه .. مبروك وأنسا .

- مبروك ووحاجيه .

- مبروك يارحمه .. غدا سيكون لك أخ أو أخت .

- يتربى في عز أبيه إن شاء الله .

(آه .. غدا سيكون لى أخ .. ولد .. سيدخلنى الجيش ، ويزيحنى عن عرشي في قلب أمى وعمتى دهيبة النور).

* * *

فاض مجرى النهر بالماء . يحمله التيار إلى الشمال .. كل عام يفيض المجرى بمياه داكنة عفية .. من الجنوب يأتي وإلى الشمال يجرى .. يروى أراضيه فينبت الخير .. تاركا الأرض هنا صفراء كالحة ، لا تنبت إلا الصخر والشوك .. ومن حولنا تفتح الجبال شررا فتلهب أجسادنا وينبت في صدورنا اليأس وينمو القلق .

أقلب عيني بين وجوههم والأرض الكالحة وهامات الجبال الجهمة فيسألونني: ماذا أصابك ؟

فأجدنى مضطرا للبوح .

نبشت أصابع عمى عبدون رحمه الذي اختفت ملامحه وراء تجاعيد وجهه الكثيرة - الرمل ، ثم قال :

فاض مجرى النهر بالماء . يحمله التيار إلى الشمال .. كل عام يفيض المجرى بمياه داكنة عفية .. من الجنوب يأتي وإلى الشمال يجرى .. يروى أراضيه فينبت الخير .. تاركا الأرض هنا صفراء كالحة ، لا تنبت إلا الصخر والشوك .. ومن حولنا تفتح الجبال شررا فتلهب أجسادنا وينبت في صدورنا اليأس وينمو القلق.

أقلب عيني بين وجوههم والأرض الكالحة وهامات الجبال الجهمة فيسألونني: ماذا أصابك ؟

فأجدني مضطرا للبوح .

نبشت أصابع عمى عبدون رحمه الذي اختفت ملامحه وراء تجاعيد وجهه الكثيرة - الرمل ، ثم قال :

إسمع يا ابن أخى أقص عليك .. زمان .. زمان قبل أن تولد بزمان .. كانت الأرض هنا خضراء ، مثل التي رأيتها هناك تلف حول القطار الذي حملك إلى مصر المدينة .. وكانت قواديس السواقي تحمل الماء وتصبه في هذه الأراضي لترويها فتنفجر في باطنها البذور ، وتكبر السيقان ، حاملة الخير ، وشواشى النخيل تتمايس في العالي مختالة بنفسها ، والسباطات تثقلها البرتمودة والسكوتى، وننصب حارسا من جريد النخيل مكسوا بجلباب قديم فتخاف العصافير والغربان فلا تقترب من التمر الذي يمسى

رطبا طريا في آخر بؤونه ، فتمتلئ النجوع بالحركة ، ويتقافز الفرح في العيون ..

تهدج صوته .. نظرت إلى وجهه فصحت مهتاجا : إيه ياعمى .. بتبكى ؟ .. كانت الدموع تجرى في أخاديد وجهه .. سرعان ما مسحها بباطن كفه وهو يردد .. لا .. لا ..

قلت لأكفيه عناء الإحساس بالمرارة : فهمت .. فهمت .

لكنه استرسل قائلا : حتى كان الخزان اللعين الذي حجز الماء أمامه، فامتلأ مجرى النهر وفاض على جانبيه وابتلع كل الأشياء إلا الرمال والحصى والصهد ، فركب الرجال البوسته وسافروا لبلاد الله الوسيعة ، وجرت عيناه فوق سطح الماء الراقد في مجرى النهر.

* * *

تغيض المياه في مجرى النهر كل عام لبضعة أيام ، فينكشف شريط الطمي .. تنشط أمي وتجرى إلى قطعة أرضنا قبل بزوغ الشمس .. كل واحدة تعرف أرضها فتجرى إليها لتلقى لها بالبذور .. تبتلعها لينبت من جوفها الكشرنجيج[1] والجراو والباميا . تترصدها الأعين الخائفة الفزعة خوفا أن تفاجئها المياه في لحظة وتبتلعها ، فيجرين إليها مذعورات .. ليحصدنه

---

(١) اللوبيا

قبل ينع ثماره ويلقونـه في أحـواش الـدور ليطعمـن بـه أغنامـا هزيلـة لبضعـة شهور.

قالت أمي وهي تتحسس بطنها الآخـذة في الـبروز .. خرافنـا سـتموت هذا العام جوعا ، عمتى دهيبة النـور الـتي تلاصـق أرضهـا شـريط أرضنـا ، قالت :

إنجو ويريرى آمبانسى [1].

فقالت أمى وونى بورى [2] ؟

قالت دهيبة النور وهي توازى كفها بصدرها .. آي [3].

لما علمت خالاتي طمايه وجاشيه بذلك زعلتا ..

قالت أمي تطيـب خاطرهمـا : هنـاك أعمـال كثـيرة تنتظركمـا هنـا .. الدواجن والخراف والبيت ، فطابتا نفسا .

قالت لى خالتى طمايه .. أنا أعرف أنك تحـب الجـاكود [4] .. سـأطهو لك اليوم جاكودا لم يطهه حسن كاشف ذاته.

---

(١) وهل هذا كلام ياعمه

(٢) ومن سيزرعها؟

(٣) أنا

(٤) الملوخيه الحرك

مالت خالتى جاشيه على رأسي وقالت : خالتك أحسن من تعك الجاكود ... ضحكت عاليا فعرفت خالتى طمايه أن أختها تسوئ سمعتها ، فسبتها .. جرّى .. رماد .

غرقت أمى وخالتى في الضحك.

* * *

ملأت وأوأته فضاء الدار .. أخى الذي سيدخلنى الجيش . قالوا لى : ستسهر طول الليل في عز الشتاء تمسك خدمة .. وتكدر فتندى أرض المعسكر بملعقة شاى ..!!

(أووه .. ليته لم يجىء).

لكن كيف أكون بلا أخ ؟.

(وربما يزيحك عن عرشك في قلب أمك وعمتك) ..

لا .. لن يستطيع.

(سنرى).

كانت الحرارة قاسية عندما خرج من مكمنه إلى عالمنا .. أشفقت عليه أمى، فأمرتنا بأن ننقل العنجريب والأبراش الخوص إلى المضيفة المبنية بطول الدار والمطلة على الحوش السماوى من خلال أبواب معقودة ، محمولة على أعمدة مستديرة بقاعدة مربعة ، ومسقوفة بقبو مستطيل من الطوب اللبن ..

جاءت أمى تحمله بين ذراعيها .. نظرت إلى وجهه لأول مرة منذ ولادته ، فالأرانب المسلوخة ترعبنى .. ياه .. ما شاء الله .. العينان سوداوان ، واسعتان والفم والأنف دقيقان ، والشعر مسترسل، .. آآآه .. أدركت الآن سر تسميته بأونتى[1].

لما كنا أنا وأمى - إندى - وجدتى - أناو - نبسط الأبراش على أرضية الحوش السماوى في ليالي الصيف نستجدى نسمات الليل الندية لترطب أجسادا ألهبتها حرارة الشمس طوال النهار، كان السواد يلون كل الأشياء ، ينتصب كسد أمام الأعين المسهدة إلا في الليالي التي تتم فيها استدارة القمر .. ذلك القرص الشفاف الرائع .. المعلق بين الأرض والسماء، الذي اختلط فيه اللونان .. الأزرق والأبيض .. قرص ضحوك .. باسم .. يرسل ضوءه في كل أرجاء النجع فيمحو سواد الليل وتمتلئ النفوس سعادة ..

كنت في هذه الليالي أنام على حجر أمى وأقول لها : كُما كُم الله .. فتحكى لى حكاية .. لكنى الآن لا أستطيع ، فقد انشغلت عني بأونتى الصغير.. إذن ألجأ إلى جدتى . إتجهت إليها عيناى ، لكنى قبل أن أنطق

---

(١) قمر

بحرف واحد ، وجدتها تمد ذراعيها إلى أمى وتأخذ بينهما الرضيع .. كلهم يهتمون به، و لم يعد الآن لى مكان بينهم ..

ضمته إلى صدرها الذي جف لبنه ثلاثين فيضانا، وبالتحديد يوم وفاة جدى - آبّادول - الذي وافق ميلاد خالى - آبجى - كرم الله الذي رحل عن النجع ليقبع تحت بناية عالية في مدينة البحر المالح ليخدم سكانها الخواجات .. يقال إنه عمل يتسم بالتنبلة .. لكن ما ذنبه هو الذي لم يتح له في قريته سوى العمل في الزراعة وخدمة الأرض .

جدتى .. أنّاو - تطيرت منه ، فقد أكل أبيه بمجرد أن خرج من بطنها، ولما رحل بعيدا عن عينيها لم يغب أبدا عن قلبها المشتاق إليه دوما، فتتوسل إليه في خطاباتها أن يرجع إليها ، لكن كيف بعد أن رأى اللحم الأبيض الرجراج ، وأسلاك الذهب المسترسلة ، والصدور الناهدة ، والقروش الحمراء المنقوشة حوافها والبيضاء الملساء .. تعطيها إياه ساكنات البناية العالية لما يجرى إلى الأسواق يشترى لهن حاجاتهن ، أو لما يدخل إلى شققهن ليقضى لهن أوطارهن .

في أول كل شهر تحمل البوستة لجدتى خطابا مسجلا منه ، به حوالة بجنيه كامل .. ورسالة يطلب منها في آخرها رضاها والدعاء له ، وفي الختام السلام لناس النجع ..

تطلب منى جدتى أن أكتب له ردا .. كل مرة تقول : لا أريد منك إلا أن تأتى لأرى وجهك الذي كادت ملامحه تضيع منـى .. وتعـال لأزوجـك زينة بنات الكنوز وأفرح بك قبل أن أرحل إلى البعيد .

* * *

لم تنقطع أسراب النسـاء المتسـربلات بالبيـاض عـن المجـيء إلى دارنـا .. إمتلأ الحوش بالدواجن التي حملنها لأمى هدايـا منهـن .. كـل واحـدة تجـئ تسبقها زغرودتها لل لل لل لل لى ..

مبروك وآنسا.. إلهي باركيره[1] ثم تطلق الطائر من يدها بعد أن تكـون قد تعمدت أن تريه لأمى وتتأكد من ذلك ، لما تقول لها: لماذا هـذا التعـب؟ ولما جاءت سبيله المعروفه بين النجع بصوتهـا العـذب لم يمهلهـا الحـاضرات حتى تلتقط أنفاسها.. أمسكت إحداهـن بـالدف ونقـرت عليـه، .. انطلـق صوتها سلسا حلوا:

وايا وأونتى أجون دلجى آنويرير [2]

زماندتون إكى سابريدا جسوا إرما إكى آهيرى[3] ؟ ..

---

(١) مبروك يا أختاه .. ليباركه الرب .

(٢) يا للقمر الذي يمحو ظلام الليل .

(٣) انتظرناك من زمن بعيد ، فلماذا تأخرت في المجيء .. ؟

خافت عليـه أمـى مـن أعـين النسـاء اللاتـى تعـرف أن أعينهـن كطلـق الرصاص، والتي تنظر صاحبتها إلى وجه إبنها أونتى ولا يصلـين علـى محمـد النبى، فعقدت خرزة سوداء وكفـا زرقـاء بخصلـة مـن شـعره ، تدلتـا علـى جبهته ، وأمسكته من تحت إبطيه .. تهزه في لين وهي تقول له :

إسمعنى زين يا زيـن الـولاد .. مـن ذوات الأعـين المسـتديرة كـن علـى حذر. إخف وجهك الجميل في حضنـى. إذا مـا جـاءت واحـدة منهـن و لم ينطق لسانها بالصلاة على المصطفى .. أما إذا جاءك المدعوق مسى دوجور الذي تندب في عينه كل رصاصات الدنيا ، والذي لم يعرف لسانه ذكر الله الحافظ ولا الصلاة على جد الحسن والحسين فلا ترينه وجهك. واملأ الدنيا بكاء وصراخا حتى يفر من دارنا هاربـا، فتسـلم مـن عينيـه اللتـين أرسـلت الكثير من شباب النجع إلى القبر.

* * *

في حجرة الديو – كما كانت خالاتى يطهين الجاكود من ورق اللوبيـا ، ومن البصل المقلى واللحم السوريد ، ليطعمـن السيدات اللاتـى جئـن مـن النجوع البعيدة .. نتحلق بعدهن الصوانى .. في ثوان نأتى على قطع اللحـم والدجاج ونعرض عن الإدام وقبل أن تغيـب الشـمس وراء جبـال كشـتمنه

غرب تجيء الصبيات اللاتي لم يتحلين بعد بقـص الرحمـن [1]. يتحلقـن أمـي وأخي ويرتجلن أغان جميلة ..

من هذا السعيد الذي جاء إلى عالمنا ؟

قمر غير الذي نراه في سمائنا ..

جاء ليضيء بنوره نجعنا ..

فبارك في عمره يا رب ، وونور ،

إيو وأونتي تو .. إيو وأونتي تو ..

أما أنت يا أماه فألبسيه ثيابا تليق ببهاه .

ثيابا أجمل مما كان يرتديها رمسيس

لنباهي به كل قرانا

من دابود حتى أدندان

إيو وأونتي تو .. إيو وأونتي تو ..

ولما ينمو عوده ، ويصير رجلا قويا

لا تزوجينه إلا من جميلة الجميلات

---

(١) قطعة من الذهب الرقيق علـى شـكل المثلث تتـدلى مـن الـرأس إلى الجبهـة ، ولا تتحلى بهـا إلا المتزوجات من النساء

جميلة يضاهي جمالها أمنا نبراتاري[1]

إيو وأونتي تو .. إيو وأونتي تو ..

وتنطلق الزغاريد لتملأ سماء النجع ، لل لل لل لي ي ي ي

وقرب ولوج النهار في الليل وترتدي الأشياء أثوابها الداكنة تشد العمات والخالات شقاتهن البيضاء حول أجسادهن الضامرة ، ويحكمن عقدها فوق أكتافهن ليتبعثرن في الدروب ذات الرمال ، بينما تشمر صبيات النجع عن سواعدهن ويدخلن إلى الديو - كما ليغسلن الأواني ويرتبن الحجرات.

وبعد أن تغلق آخر واحدة منهن الباب وراءها وهي تردد إنا أفياتي[2] تجئ جدتي - أناو - بالدوراه[3] وبه قطع من الخشب المتوهج ، ألقمتها حبات الملح والشبه .. تقوم أمي حاملة "أونتي" بين ذراعيها .. تطقطق حبات الملح وتنتفخ الشبه . تخطو فوقها سبعا وهي تردد كلاما لترقيه : ويرو - واحد ليحفظك الرب من أعين حسادك

أوو - إثنان ومن عين كل من رآك و لم ينطق لسانه بالصلاة على النبى

توسكو - ثلاثة ومن أعين أمك وأخيك

(١) نفرتاري (٢) أتركتكم بعافيه (٣) المنقد

فتقول جدتي ضاحكة ومن عين إنـاو .. جدتـك ، ثـم تبسـط ذراعيْهـا وتأخذ أونتى لتكمل رقيه :

كمسو – أربعة – لقد فلقت العين الحجر ، فافلق بقدرتـك يـا إلهـى – وونور تلك العين .

ديجو – خمسة – ..

* * *

قبل أن يعتلى قرص الشمس عرش السماء خلعـت أمـى قميصهـا الـذي امتزج فيه عرقها ومسحت به عرق أونتى .. جئت ورفقتى بالخوص وصنعنا قاربا صغيرا . تكومت نساء النجع أمام دارنا .. في انتظـار خـروج أمـى .. اجتازت باب الدار الكبير .. أحطن بهـا ، توجهـن نحـو النهـر .. اختطـف الولد نوجو تود قميص العرق .. صنع منه قلعا للقارب الخوص .. أضـاءت أمى شمعة .. ثبتها الصبية في باطن القارب الذي وضعوه على سـطح المـاء . إصطف الجميع على الشاطئ يتابعونه . جرفه التيار إلى البعيد .. صار نقطـة صغيرة .. تناولت النسوة قطـع العصيـدة .. القينهـا في النهـر ليبـارك الوليـد وهن يرددن :

ووإلهى .. وونور . هذا الطفل الجميل .. إبن النيل
احفظه وباركه وأعل من شأنه .

وبعد أن رمت أمى بآخر قطعة من العصيدة إلى ناس النهر تقرفصت بحذائه وفي حضنها أونتى . تناولت المرود من خالتى طمايه ورسمت صليبا على جبهته . خاضت عمتى دهييه النور الماء وأخذت أونتى بين يديها وغسلت وجهه بماء النهر ثم ملأت إناء منه، سارت نحو الشجرة المعمرة تتبعها أمى وناس النجع .. ندت عمتي الشجرة بماء النهر وهى تردد والكل يردد وراءها :

وواِلهى .. وونور . بارك هذا الطفل الذي وهبته لوالديه ، والذي غسل وجهه توا بماء بحر النيل المقدس، وأطعم من مال أبيه الذي كسبه من الحلال ناس النهر ، فاحفظه من أعين الناس، وأبطل أعمال السحر الذي تقصده بشر، واحفظه من ناس النهر الذين يعشقون فلذات أكبادنا ذوى البشرة السمراء الحلوة والأسنان اللؤلؤية، وكما أطلت في عمر هذه الشجرة، ونفعت الناس بظلها الوارف أطل يارب في عمره واغرس في قلبه الحب لكل الناس وواِلهى، وونور .

جاءت إلينا الخواجات . ذوات الوجوه الشمعية ، المتدثرات بأثوابهن الرمادية ، المؤطرات وجوههن بأوشحة من نفس قماش أرديتهن .. كن يقمن بالذهبية الرابضة على شاطئ النهر منذ أن جاءت ورست في مكانها .

وقفن بجوار أمي والدهشة تعلو وجوههن وهن يشاهدن طقوس الوليد مع النهر. كانت الأم لوى رئيستهن هي الوحيدة التي تفهم النوبية وتتكلمها، فكانت تنقل إليهن ما كانت تسمعه أثناء تأدية تلك الطقوس ..

تقافزت السعادة فوق وجوههن لما رأين أمي تغمس سبابتها في ماء النهر وترسم على جبهة أونتي الصليب لتعمده . اتسعت حدقات أعينهن وتوردت بشرات وجوههن وتبادلن كلمات هادئة ، رشيقة، تخرج من أفواههن كالهمس، كن كالملائكة التي ورد ذكرها في سور القرآن التي حفظناها في الكتاب ، لكن أمهاتنا حذرتنا منهن، فكنا نفر من أمامهن ، إذا ما حاولن الاقتراب منا وإغراءنا بقطع الحلوى والملبس، لكنهن لم يعدمن الوسيلة من التقرب لنا بكلامهن الحلو العذب، وحبات الفول السوداني والحمص ..

وذات يوم اتفقنا فيما بيننا ألا نجرى من أمامهن، ونقف لنرى ماذا يردن.. قالت الأم لوى وابتسامة تضيء وجهها الشمعي :

تعالوا إليّ ملائكتي الصغار ..

وتبسط ذراعيها على طولها لتأخذنا إليها، وبعد أن تدس لنا قطع الحلوى في جيوبنا تروح تروى لنا حكايات لم نعتد على سماعها من جداتنا.. حكايات عن الرب الذي يحب عباده الطيبين ، لكنه لا يقبلهم إلا إذا اهتموا بغسل وجوههم وأيديهم، ثم تأخذنا إلى شيء تديره فتخر منه

المياه بغزارة. تملأ حفان يديها لتغسل وجوهنا وأعيننا وأكفنا. ثم قامت أخرى بتجفيف ذلك بمنشفة طرية وهي تردد :

الآن فقط يقبلكم الرب يسوع، فننظر إلى بعضنا بأعين تطل منها علامات الاستفهام، وقبل أن ينطق أحدنا بحرف مستفسرا عن يسوع الرب تمد لنا يدها بقطع السكر المكعبة وهي تقول :

لقد أرسلتها لكم العذراء فكلوها باسم الصليب .

ندس قطع السكر في أفواهنا ونحن ننطلق إلى دورنا، ونروح نستحلبها متلذذين ونحن نتصايح :

- الله .. حلو قوي .

- كل يوم من ده .

- بشرط ألا تعرف أمهاتنا .

- والصليب؟

- هأ. سنرميه في البحر .

ثم ندخل في سباق ازدراد حبات الحمص والسوداني ، ونحرص على إزالة كل أثر لهما من جيوبنا قبل أن نلج أبواب دورنا حتى لا تعرف أمهاتنا فينذروننا بعذاب النار في الآخرة جزاء اقترافنا إثم الاقتراب من هؤلاء الخواجات ..

- لكن هل صحيح أن الكلام معهم يدخل النار ؟

- هأ هأ .. لماذا ؟

ظل السؤال عالقا برأسي ، فلما لم أهتد لإجابة آثرت إهماله.

* * *

شعرت أمى بالتعب يسري في أوصالها فتمددت على سرير العنجريب.. قبل أن تأتينا عمتي دهيبه النور بالعشاء سمعنا طرقا على الباب الكبير المطل على النهر. أطلت الدهشة من وجوهنا .. من الذي يأتينا في هذه الساعة؟ قلت : ربما تكون واحدة من ناس النهر سمعت عن جمال أونتى فجاءت لتخطفه .. أخفت جدتى الدوراه تحت السرير .

قالت لى وهي تسحب حلمة صدرها من بين شفتى أونتى : افتح.

ألجمتنى المفاجأة لما رأيته واقفا قدامى . مِسّي دوجور اللعين.. لما أفقت حاولت أن أقفل الباب في وجهه .. إبن الكلب. أرسلت عيناه محمد نجد إلى القبر بعد ساعات قليلة من مجيئه إلى النجع لأول مرة لما جاء ليقضي إجازته بيننا. رآه مسي دوجور نازلا من صقالة البوسته فصاح قائلا : ياه إن وجهه يلمع مثل حبة الزيتون الأسود. لما غابت الشمس وخفت وطأة الحرارة أراد محمد أن يخرج إلى النجع لرؤية ناسه المشتاق إليهم. ما أن اقترب من باب دارهم حتى لدغه عقرب أسود، صرخ آآخ .. وسقط .. تمرغ ألما ثم سكن الجسد .. في الليل كانوا قد واروه التراب .

- من ياولد ..؟

حمل الهواء أصواتهم إليّ .. ركبهن الهم لما عرفن .. وحدنه أمامهن . أشحن بوجوههن. نظر إليه فاستدارت حدقتا عينيه وصاح : أووه. ما أجمله؟

سحبت أمي الملاءة على وجهه القمري وهي تردد فزعة : النبيدندوجور صليه [1].

ضحك فيرز نا‌باه الأصفران المتآكلان، والباقيان من أسنان أفسدها الدخان والأترون اللذين يختزنهما تحت لسانه، ويظل يمتصهما ويبزق لعابا بنيا داكنا طوال النهار.

ركب الهم أمي ورافقها الخوف والقلق على أونتي

قالت لها جدتي - أناو - اتركيها لله . سأرقيه حالا فلا تخافي.

قالت أمي وقد اختلج صوتها : لم نسمع عن مثل عينيه في الناحية كلها .. عيناه والقبر .. الملعون ..

فزعت عمتي دهيبه النور . قالت : الله يحميه .. الله يحميه .

قالت أمي : أبدا ما كان حلوا مثل ولدي .. رآه الملعون مرة واحدة ، فلم يطلع عليه نهار في ها البلد التي لا تنبت غير الموت .

---

(١) صلى على النبي.

قالت جدتى وهـي تبسـط إليهـا يدهـا لتـأخذ منهـا أونتـى وتضمـه إلى صدرها :

لو لم يكن الخزان اللعين لولد هنا هو وكل من كان في سنه ومـا جـرى ما جرى .

أخذتني عمتي دهيبه النور إلى ركن قصي وهمست لى متسائلة : ألسـت رجل البيت ؟

قلت وقد نفخت صدري : نعم .

قالت : إذن إجر وابحث عنه ، وهات لنا قطعـة مـن ثيابـه أو خصـلات من شعره.

انقبض قلبي .. خفت على أونتى . وجدتنى أدمدم :

ابن الكلب ، والله لو مات أونتى لأقتلنه. لكن مـن أيـن لى بقطعـة مـن ثياب مسي دوجور ، أو خصلة من شعره؟

جرجرت قدمي إلى الأرض البراح، وجدته ممددا بجوار الجامع .. كنـت أراه كثيرا في دروب النجع فأمر عليه كأنه لم يكن، في هذه المرة نظـرت إلى عينيه. كانتا كبيرتين مستديرتين، بارزتين، تجلبان العقارب الفتاكة من تحـت الأحجار، لكن لابد من قطعـة مـن ثيابـه أو خصـلات مـن شـعره .. لكـن كيف؟

رآني رفقتي مهموما .. سألوني : لم ..؟
قلت لهم المسألة وما فيها .
قالوا : عليك بنوجو تود.

* * *

في حوش دارهم وجدته ممددا على ظهره ، غارسا عينيه في الفضاء . التقطت أذناه صرير الباب . هب قاعدا .. حكيت له الحكاية.

قال : لماذا أدخلته الحوش؟ كان يجب أن تمنعه، وفي لحظة كانت عيناه قد سافرتا بعيدا، جابت كل أرجاء النجع، ثم ارتدتا بسرعة ليقول: تعال. سألته وأنا أهرول وراءه : إلى أين؟

قال : الجبل

تتلفت رأسه يمينا وشمالا .. انحنى. التقط بوصتين طويلتين قال وقد أمسك طرفيهما بيمينه : سنذهب إلى هناك وأشار إلى ما وراء الجبل ، وهو يستطرد : إذا كنت خائفا ارجع من الآن، فربما نذهب بعيدا ..

- لكن يجب أن أعرف لماذا ؟ .. وماذا سنفعل هناك ؟

(عشت حياتي كلها هنا أهابه، فلم أدنو منه. حتى بعد أن عرفت أن نساء النجع يقضين حاجاتهن وراءه ساعات الغروب).

- تعال وستعرف.

سرت صاغرا ودقات قلبي يكاد يسمعها هذا المجنون. اختفى النجع وراء الجبل .. عيناه تجريان بين الصخور الصغيرة المتناثرة فوق رقعة كبيرة من الأرض الرملية .. أحالتها حرارة الشمس القاسية إلى قطع نارية .. فجأة انحنى .. من بينها التقط عقربا أسود بطرفي البوصتين . في زجاجة حبر فارغة أخرجها من جيبه أسقطه .. إرتد عائدا . راح يعدو .. سألته لماذا ؟ وأنا أعدو وراءه .. بدا مسي دوجور على مقربة منا في الأرض البراح .. كان مستلقيا في تراخ .. إقترب منه، بجواره ألقى العقرب ثم صاح في فزع : مسي دوجور .. مسي دوجور هوي.

في تثاقل أدار الرجل إليه رأسه، تساءل في غير اكتراث : ماذا أيها المجنون ؟ لماذا تصرخ هكذا ؟ هل طُلقت أمك ؟

قال نوجو تود مغتاظا : لو كنت أعلم أنك ستقول هذا لكنت تركت هذا العقرب الذكر يلدغك ..

راح يجعر كالملتاث وهو يتمرغ فوق الرمال في عكس الاتجاه الذي أشار إليه نوجو تود .. التصقت حبات الرمال بجلبابه وعمامته البيضاوين، استحال لوناهما إلى الأصفر اللامع وهو يصيح .. آه .. إدركوني يا ناس النجع سأموت مسموما .. آه ..

همس من كانوا بجواره : مت يا ابن الكلب .. ضحك البعض الآخر وهم يقولون : عيب أن تولول هكذا مثل الحريم.

يتحرك العقرب في بطء وحذر شمالا ويمينا .. مشرعا ذنبه الذي يختزن فيه السم . يضرب به أي شيء يصطدم به.

قال نوجو تود وهو يقهقه عاليا : ستشرب من نفس الكأس الذي سقيت منه الغير يا مسي دوجور.

صرخ الرجل مرعوبا : حرام عليك .. أولادي ما زالوا صغارا .. إقتله إقتله يابني.

قال نوجو تود : سأقتله بشرط أن تعطينى قطعة من ثيابك أو خصلات من شعرك.

قال بسرعة : موافق .. موافق . إذهب إلى الدار وخذ قميصا قديما .. قل لأم الأولاد تعطيك قميصا قديما.

إلى دارنا جرى نوجو تود بالقميص. رأته أمي فغمرتها الفرحة .. فقصت منه قطعة ورمتها في النار مع حبيبات الملح، وبخرت أونتى .. رفعت وجهها إلى السماء لتحمد الله الحافظ، إنعكس ضوء الشمس من قُص الرحمن المتدلى على جبينها .. سقط الضوء على وجه الوليد - تصاعد الدخان من قطعة القماش المحترقة .. عطس أونتى وسعل .. فرحت أمي ..

صاحت فرحة : أخرجي أيتها الروح اللعينة من جسده لينمو ويترعرع ويشبع من حناني وحبي حتى يصير رجلا فتيا قويا تهفو إليه قلوب الفتيات، ثم ضمته إليها بينما دفق الكلمات الدافئة لم ينقطع من فيها .. ستعيش لتكبر ويجئ أبوك من مدن الشمال البعيدة، ليعيش معنا. سيشرب ثانية من ماء النيل السلسبيل فلا يسافر إلى البعيد ولا يجرؤ الشيوخ الفجرة أن يسألوا ولدي عمن يغطيني ليلا.

ضحك أونتي ورفست ساقاه الغضتان، فأطلقت أمي زغرودة لمت الجيران.. تكأكأن حولها في الحوش، ثم جاءت جداتي مدينه وآشا وحسيبه حاج من نجع الإفدينا حيث كن في زيارة جدي - أبا دول - بعد عودته من رحلته التجارية الشهرية.. جدتي آشا حاج سألتني هذا الصباح إن كنت أحب أن أذهب معها.

لما قلت لها لا، قالت : إنس ولا تكن أسود القلب .

(لكن كيف .. وقد ضربني من أجل حبة دوم أخذتها من دكانه .. رآني أقضمها . خطفها من يدي وطوح بها إلى القفة التي أخذتها منها.. جريت عائدا إلى النجع وعيناي مليئتان بالدموع..)

عرفت جداتي والجيران الذين جاءوا على زغرودة أمي ما كان من نوجو تود، فأكبرن الوليد .. أخذته أكبرهن إلى حضنها وراحت تغني له،

بينما تسابقت الأخريات إلى قميص مسي دوجور للفوز منـه بقطعـة، علهـا تحتاجها في إبطال مفعول عينيه مستقبلا ..

ملأت عمتى دهييه النور طبق الخـوص الكبـير بحبـات الفـول السـوداني والبلح الأبريمى ووضعته على رأسها، مـدت يدهـا إلى أمـى والتقطـت منهـا أونتى ، ثم راحت تتمايل وتتثنى وهي تغنى له.

أونتى دولمج آنوريل

أونتى دولمج آكومسيل.

أمسكت إحداهن بالدف . نقرت عليه فرقصت في بطء شـديد، لكنهـا سرعان ما أخلت المكان لما غدا الإيقاع عاليا وسريعا .. تقـافزت الصبيـات إلى وسـط الحلقـة .. اهـتزت أجسـادهن ونفـــرت صدورهـــن وارتعشـــت كارتعاش سمكة الفـرى [1] في المـاء ، فتقـافزت حلـى الهـلال والرسـان الـتي كانت نائمة منذ لحظات فوق صدورهن التي بـاتت مجنونـة الآن .. تعلقـت بها أعيننا . استحالت أجسادنا إلى لهب .

* * *

---

(١) البلطى

قم .. قم يا ولد ..

كان عم شلالى المراكبى ينتظرنا بمركبه عند المرفأ ، كما اتفقت معه جدتى - أناو - أول أمس.

وهي تخطو إلى جوارها نحو النهر قالت لها : دثريه جيدا فبرد الصباح قاس.

فطوته تحت جناحها . جرجرت الشاه التي اشتريناها من المرأة الحلبية [1] التي تجئ إلى نجعنا ولا نعرف من أين.

تهادت المركبة على صفحة الماء، فرد شلالى القلوع .. امتلأت بالهواء، فجرت المركبة خفيفة، سريعة إلى البر الغربي .. من البعيد بدت قباب الشيخ شرف - ضيقت أمى حدقتي عينيها وظللتهما بباطن يمناها .. تمتمت شفتاها :

شى الله يا شيخ شرف .. جئتك بنذري فتقبله، وارض عن هذا الوليد، وأشارت إلى أونتى وهي تتمتم بكلمات لم أتبينها، بينما ظلت عيناها معلقتان بضريح الشيخ القائم فوق جبل المحرقة، حتى رست المركبة في مرفئها، فاعتلت الصقالة وشدت خطوها تجاهه.

---

(١) يطلق لفظ الحلب في النوبة على كل من لا يعرف أصله أو نسبه.

انشقت الأرض عن ناس القرية .. التفوا حولنا . غرسوا أعينهم في الشاه .. همهمت شفاههم بعد أن مصمصت :

- ضمرانه.

- حالها عدم .

- كلها عظام.

القصد .. مبروك يا أخت.

أمي جرت إلى باب الضريح. غرس رجل نصل سكينه في رقبة الشاه .. انسال الدم ، بقر بطنها .. اختلط الدم بالروث فكان العطن. تدافع الناس.. امتدت الأيدى .. علا الضجيج .. وأنا .. وأنا .. وأنا . اختطفوا قطع اللحم النيئ.

زعقت أمي : رحمه .. ولد يارحمه ..

كسرت الحائط البشرى الملتف حولها وراحت تجرى ورائي صوب النهر، أصابها الدوار .. أفرغت ما في بطنها قبل أن تصبح بجواري في جوف المركب، الذي اتجهت مقدمته صوب الغرب، بينما راحت قباب الشيخ تتباعد .. تتباعد ثم تغرق في مياه النهر ..

ما أن حل المساء إلا وكانت رأس أونتى وجسده مثل النار، راح يئن من آلام لم نعرف كنهها .. جاءت كل نساء النجع، تكومن حول الجسد

المتكوم فوق العنجريب . إرتعش الجسد وانتفض .. ناحت أمى وهي تكـوم فوقه كل الأغطية .. ذهبت جدتى إلى حجرة الكانون وجاءت بصينيه شاى وراحت تدق عليها برأس ملعقة صغيرة .. جاءت بومة وحطت على سطح البيت. نعبت . تطيرت أمـى وجدتـى والنسـاء، طوحـن أيديهـن تجاههـا .. طارت.

ازداد ارتعـاش الجسـد .. قـالت واحـدة .. نذهـب بـه إلى الخواجـــات يداووه.

صرخت جدتى محتدة : نروح به للكفره ؟ .. أعوذ با لله .

قبل العشـاء شـقت صرخـة أمـى صـدر الفضـاء .. انداحـت في أرجـاء النجع .

قالت النسوة : الصبر يا أختي .

- شفيعك يوم القيامة.

- خادمك في الجنة .

أما أنا فقد انهمرت دموعي كشلال هادر وأنا أتساءل : ليه ؟

قالت بعض النسوة يهدئنني : ذهب إلى ربه .

صرخت متسائلا : ليه. بعد أن عرفناه وتعلقنا به ؟ ..

في جوف الليـل صحـوت .. كـانت أمـى تتقرفـص بجـوارى ، متجهـة بعينيها إلى جهة الشرق حيث يرقـد الشيخ شـرف ، ثـم قـالت بشـيء مـن القرف : أهكذا يا شيخ شرف .. اتفو .

وأفلتت بصقتها فوق الرمل، وشالت فردة مداسها القديم القابعـة تحـت العنجريب ووضعتها فوقها.

وأزف وقت الرحيل

كل الدور تطل علــى النهـر .. عاليـة ، شـامخة كأنهـا أديـرة قديمـة ... صامدة فوق التلال الرملية الصغيرة، تتحدى لهيب الشـمس الحارقـة، وميـاه الخزان، العاتية. وأذناب العقـارب الغـبراء .. فـوق الأبـواب الضخمـة الـتي يدخل منها الرجال والمطلة على بحر النيل لصقت الأطباق الصينية لتزينها .. في النهار تعكس أشعة الشمس البرتقالية، وفي المساء تخلع على دروب النجع حلُلا بنفسجية رائعة، وعلى الجدران نقوش ساذجة رسمها الصغار .. جمـال وبواخر ونخيل يتدلى منها البلح والدوم، ويا داخـل هـذا الـدار، صلـى علـى النبي المختار .. الحروف عرجاء. متكسرة، لكنها مقروءة. في الظهيرة تقسو أشعة الشمس .. تشوى الوجوه والأبدان.

أمى والجارات يهربن إلى ظـلال شـجرة السـنط الوارفـة وسـط الحـوش السماوى .. الدجاجات تقأقىء .. ألسنتها معلقـة بـين مناقيرهـا .. حبـات المياه تتساقط من الأزيار المتراصة حول شجرة الليمون تبلل الرمال .. تنبـش الدجاجات المقأقئـة حبـات الرمـال الرطبـة .. في الحفـر الـتي تحدثهـا تدفـن أنفسها.

في ظل الجدران المطلة على الجبل يسـند الشـيوخ والصبيـة ظهورهـم .. يلوكون أحاديث معادة ، أو يدخنون السحاب وهم يجترون ذكريـاتهم عـن أيام عاشوها قبل أن يمتلئ النهـر ويفيـض، ويبتلـع الأرض الخضـراء والـدور والسواقي وحتى أجداث الموتى .

لم يبق سوى شريط ضيق من الأرض التي تفجرت الخضـرة مـن باطنها بحذاء النهر، تجري النسوة إليها عندما يغيض الماء لتزرعها بالكشرنجيج[1] والبرسيم ليطعموا بها دوابا نتأت عظام أجسامها .. ضاق الرزق فشد الرجال الرحال إلى الشمال .. لم يبق بالنجع سوى الجرذان والكلاب والصبية والعجائز الذين يطحنهم الشوق للأحبة الذين لفتهم دوامات الشمال، فتعلقت أعينهم بالبوسته[2] الآتية من الشلال، والآمال تحبو في الصدور مع كل واحدة ترسو في المرفأ ..

* * *

في الصيف بعد أن نفرغ من امتحاناتنا يجرى بعض رافقتنا إلى الموردة .. تجيء البوسته .. على وجوههم تتقافز الفرحة .. تتجه مقدمة البوسته نحونا .. تطلق صفيرها .. تمس حوافها أحجار الشاطئ ..

فوق الصقالة تتقافز أقدامهم الصغيرة . تتصايح الأمهات :

– إتو أوسمان (ولد يا عثمان) ، إياك أن تتأخر :

– سلم على أبيك وأعمامك يا بحر.

– سننتظركم قبل أن تنتهى الأجازة ياكلاب .

---

(١) ورق اللوبيا

(٢) الباخرة

وتبتلع البوسته رفقتنا الصغار وتبحر متجهة إلى الشمال، وفي طريقنا إلى النجع نغبطهم ونتجرع المرارة .. مرارة صفراء بلـون الرمـال المكومـة فـوق الدروب، ونقبع في الدور إلى أن تأذن الشمس بالمغيب ..

ضقت ذرعا من طول بقائي في الحوش ، فلمـاذا لا أجـرى إلى النهـر .. أخلع جلبابي .. أتحرر من سجنه الأبدي .. أشاهد عربي هناك قبل أن أقفـز إلى النهـر .. أحتضـن مياهـه وتحتضـني .. أغـوص فيهـا فـلا يطولنـى لهيـب الشمس ..

جاست عيناي خلال الحوش .. مسحتا كومة البيـاض[1] تحـت شـجرة السنط التصقت بالجدران .. زحفـت قدمـاي .. انسـل نحـو البـاب .. أمـد يدي .. أقبض على ضبة الخشب الضخمة ...

زعقت أمى فجأة : إتو آلوب (ولد يا علوب) إلى أين ؟

- شعرت بالضيق يا أمى .

- لا تذهب إلى النهر .

(منذ أن عرفت قدمـاي دروب النجـع وأنـت يـا أمـى تصبـين في أذنـي أوامرك ونواهيك . إياك .. لا تبتعد .. لا تدخل الدور المهجورة .. لا تفعل .. لا .. لا .. لماذا يا أمى .. أهـو زيـادة حـرص منـك .. أم أن سـفر أبـى وأخى إلى الشمال قد زرع في قلبك الخوف ؟؟)

---

(١) تلف النساء المتزوجات في النوبة الشمالية (الكنوز) علـى أجسـامهن وفـوق جلابيبهـن مـا يشـبه السارى الهندي، وهو قماش أبيض رقيق، يسمى الشقة (بضم الشين).

- حاضر يا أمي لا تخافي ..

(النجع كله قبضة يد ، والناس كلهم أهلي وعشيرتي كما قالت لى عمتى "كسبانه" ذات ليلة قائظة .. كنا نفترش رمال الحوش لنتصيد نسمة طريه .. توسدت فخذها ورشقت عيني في صفحة السماء داكنة الزرقة .. وراء نجوم لامعة لعوب .

قالت لى : إن ناس النجع كلهم ينتمون للصالحاب[1] وأن أجداد البطون الأربعة جميعهم أشقاء .

فلم الخوف إذن يا أمي .. ؟

لفح هواء السموم وجهي ، وحبات الرمال الملتهبة لسعت باطن قدمي، وصوت أمي يجرى ورائي .. يلاحقنى .. إياك والنهر ..

أقول لها : وقد أعطيتها ظهري : حاضر ..

استطرد صوتها المعاند قائلا : فناس النهر يخرجون هذه الساعة ويخطفون الصغار .

(حتى الآن - وبعد طول سنوات عمري التي عشتها تحت سمائك يا قريتي لم يحدث أن اختطف واحد منا .. فلماذا كل هذا الترهيب ؟؟).

---

(١) آب بمعنى قبيلة .

لأذهب إلى جدتي .. فبيتها هناك .. قريب من النهر .. ها هو ذا يقف منفردا، شامخا .. سأطلب منها أن تحكى لى أسطورة "فانّه سحرنسى" [1] .. صحيح أنني سمعتها كثيرا منها ، لكنها في كل مرة تحكيها بطريقة مختلفة، وتضيف إليها أحداثا جديدة والغريب والعجيب أنها تنهيها في كل مرة نهاية غير متوقعة .

لا لا .. الأفضل أن أذهب إلى النهر، فالحر يشوى جلدي، وصفحة الماء الرقراقة تبدو من البعيد باردة، تغريني، فأشد إليه الخطو ..

تسألني جدتى – أناو – بعد أن تنتهى من سرد حكايتها : أحكى لك حكاية أود كنّه[2] الذي أحبته إبنة النهر الجميلة فاختطفته وأخذته إلى قاع النهر وتزوجته ؟ ..

قلت : عجيب أمركم مع النهر يا جدة ... تعظمونه حتى أنكم تخشون أن تولوه ظهور دوركم، وليلة عرسه يجرى إليه العريس ليغمس فيه جسده ملتمسا بركته قبل الدخول على عروسه، وعندما تضع الأم حملها تضعه في اليوم السابع في صندوق وتلقيه على صفحته تيمنا بكليم الله موسى، فلماذا إذن يا جدتى ترون فيه غولا يخطف الصغار ؟ ..

قالت وهي تقرص أذني : لقد حذرتك ..

---

(١) فاطمة بنت الصقر.

(٢) عوض الصغير.

ها هي مركب "باشرى" .. امتلأ شـراعه بـالهواء فراحـت تجـرى فـوق صفحة الماء .. شقتها فتكسر نصفها عند الحافة التي أقف عليها .. دغدغت البرودة الجسد لما تسرب إليه .

قالت جدتى – أنّاو – أرضنا التي كنا نزرعها لم تكن تحصرهـا العين ، وغابات النخيل التي كانت تعطينا البرتمودة والسكوتى والملكـاب، وأشـجار الثمار مختلفة الألـوان كـانت كثيفـة ، وفجـأة امتـلأ النهـر .. فـاض فـابتلع الأرض والنخل والثمـار ، ولم يبـق إلا الجبـال والرمـل والصهـد والشـوك . نزعت قدمي من النهر ورحت أعدو ..

لكن كيف حدث هذا يا جده ..؟

قالت : لأنهم أقاموا خزانا هناك .

قلت والدهشة تسكن عيني : خزان ؟ ..

قـالت : وقبـل أن يأكلنـا الجـوع يـا ولـد رحـل الرجـال إلى الشـمال يلتمسون الرزق ..

أنّاو .. أنّاو .. (جدتى .. جدتى)

صحت بأعلى صوتي .. سـقط قلـبي في الظلمـة الحالكـة .. مـت فـوق العنجريب مرتعبا لما تحسست مكانها بجوارى و لم أجدهـا. صرخـت. فزعـا صرخت .. جاءتني تجرى .. إلى حضنها ضمتني . بسملت بسم الله الرحمن الرحيم .. جاءت بكوز الماء، قالت : خذ .. اشرب. وضعت بـاطن كفهـا

على رأسي وراحت تقرأ بعض الآيات .. شربت من ماء الكوز .. قالت لى : اتفُل في عبك وتركتنى وجرت إلى الديو-كا [1] صوتها يأتيني من البعيد .. لا تخف .

جاءت بالمنقد .. فوق الخشب المتوهج طقطقت حبات الملح .. أمرتني أن أخطو فوقها سبعا . لما فعلت آخذتني بين يديها . دفنت في صدرها رأسي .

* * *

كدت أسمع رفة قلبها وهي تناولني مظروفا .. فوق سطور الرسالة جرت عيناي ..

قالت : اسمعني .

قلت : نشتاق إليكم ، لكن .

قالت : كل مرة العين بصيرة والـ ..

قلت : مرسل لكم الـ ..

أكملت : مصاريف الشهر ..

وفي نهاية الرسالة قال أبي : وعثرنا على عمل لولدنا علوب .. سأنتظره بعد أسبوعين ومرسل لكم أجرة البوسته والقطار ..

---

(١) حجرة الكانون .

وفجأة وجدت أمي قد انتصبت واقفة ووضعت كفا على رأسها وراحت تخبط عليها بالأخرى وهي تولول : بيوبيو .. بيوبيو ، ثم لطمت الخدين .. جاءت الجارات .. ملأن الحوش .. كنت قد أخذتها إلى صدري .. في حضني . على رأسها وضعت رأسي ، وباصبعي مسحت من فوق خديها نهرين من الدموع .

سألت خالتي "داريا" : والعمل ..؟

قالت : لا تحمل هما .

وجرت إلى دكان عمي ، "بحر حسين" واشترت مقطفين ملأتهما بلحا ولحما مقددا ، وأبريج، وتوبه، ثم اتفقت مع خالي - ابن عمها - عباس افندى وكيل مكتب البريد بأن يسافر معي إلى الشلال ليركبني القطار .

قلت لها : وأمي ..؟

قالت : لا تخف .. كلنا مررنا بهذه التجربة .

* * *

قلت لها وهي تجلس بجوار جدتي : أبي سينتظرنا يا أمي .

قالت عيناها : ستسافر ؟ .

همست أمها (جدتي) : كلهم في هذه السن يسافرون.

قلت لأمي : دموعك تجرحني .

قالت : حتى أنت ستذهب ؟ .

قلت : لن أغيب عنك يا أمى .

قالت جدتى : جدك قال ذلك وأبوك .

قلت : سأكتب لكم دوما .

* * *

في المردة أخذوني إلى أحضانهم، وأخذتهم إلى حضني .

لما وقفت وراء السور الحديدي لسطح البوسته قالت لى الخالة آشا ..

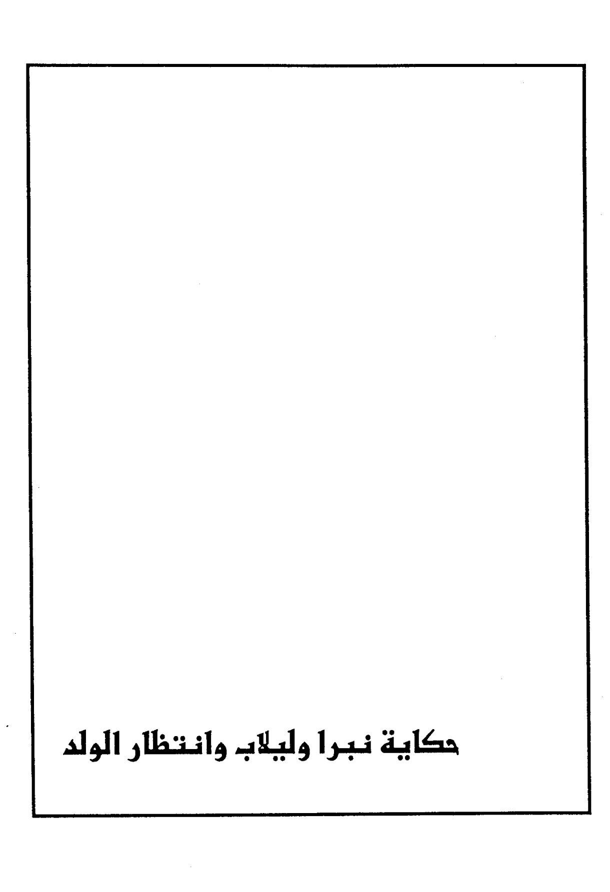
- اسأل عن عمك بشير وأخبرنا عن أحواله .

- سرى وآشا .. (حاضر يا عائشة).

وقالت طمايا بشير : قل لمحجوب يرسل خطابات، وضروري ضروري يزيد المصاريف التي يرسلها .

أطلقت البوسته صفيرها، وزفرت من منخارها الأسود دخانها الأسود .. تداخلت الكلمات، وتعالت الأصوات .. اختلطت .. لكنها لم تحجب عنى دموع أمى .. تلوح الأيادي .. تزعق الأصوات .. تتعالى .. آديلا ووآلوب .. آديلا .. آديلا ..

يتعالى أزيز المحرك .. ابتعدت البوسته عن المرفأ .. ابتعدت الدور، وهامات الجبال الجهمة ، والأطباق الصيني الملصقة على واجهات الدور المطلة على النهر، صار الناس ذرات تتحرك نحو النجع .. رف القلب .. فرت دمعه .. سقط القلب .. وقع الرأس فوق الصدر ..



حكاية نبرا وليلاب وانتظار الولد

في انتظار الولد

قلت لها وأنا أتوسد فخذها، ممددا جسدي فوق بساط الرمل الناعم في حوش دارنا السماوى :

إحكي لى يا أنّا [1]

كان القمر يطل علينا من عليائه .. كل الأشياء حولنا ارتوت من ضوئه فباتت واضحة جلية، لكن الأطباق الصينية التي تزين الجدران فوق الأبواب المطلة على الحوش ردت الضوء الشفيف ممتزجا بالألوان التي عليها فأحالت الحوش كله إلى لوحة جميلة ، رائعة الألوان .

عينا جدتى تسافران إلى السماء، تلتقيان بعيني القمر .. تنبسط أسارير وجهها الذي يشبه وجه نبرا [2] المحفور على جدران البربا[3] وهي ترنو إلى قرص الشمس ذات الأذرع الكثيرة الممتدة منها في كل اتجاه توزع الخير على أجزاء الكون .

عينا جدتى - أنّا - سوداوان .. سمكتان صغيرتان، وشعرها فاحم كالخروب .. طويل كشواشى النخيل .. ناعم كالحرير .. ضفرته في جدائل رقيقة .. ينسال كما الشلال على كتفيها .. يمتزج في انسجام مع لون طرحتها وجرجارها فلا أقدر أن أميز أطرافه ..

---

(١) جدة　　(٢) نفرتارى　　(٣) المعبد

قالت بصوت عميق كأنه آت من الزمن البعيد الذي عاشته صبية تتيه بنفسها :

زمان .. زمان يا ولدى .. قبل أن يجئ أبوك إلى هـا الدنيـا .. لا .. بل قبل أن يشد جدك خطوه إلى دارنا لطلب يدي من أبى لولـده سيد شباب الكنوز ، ها الحين .

قاطعتها متسائلا وعيناي تمرحان فوق وجهها : قطعا يا أنّا كنت أجمل الجميلات .. ؟

قالت وقد بانت أسنانها اللؤلؤية لما انفرجت شفتاها عن بسمة حلوة حلوة :

كنت صغيرة يا ولدى مثل ها البدر الذي أحببته حتى العشق، فأحبني، وأخذ من حلاوته وأعطاني .. كل ليلة كنت أسهر معه .. في وجهه أرشق عيني وأناجيه، فخلع على استدارة وجهه وسحر عينيه وصفاء لونه ، فصار الكل ينادونني أونتى[1] خلعوا على اسمه ونسوا اسمى الحقيقي نبراتارى .

قلت مندهشا : نبراتارى ؟

قالت : تريد أن تسألني عنها، كما سألت عنها كثيرا لما كنت في مثل سنك؟ إنها جدتنا العظيمة أم أمنحوتب وزوج أحمس العظيم، محرر مصر من الرعاة الهكسوس ..

---

(١) قمر .

صمتت قليلا وكأنها تتذكر ما سمعته في صباها ثم قالت : لقد جاء فراعنة مصر إلى النوبة وأقاموا فيها طويلا حتى أعادوا بناء جيشهم ، وعهدوا إلى الصناع المهرة من النوبيين بصنع السلاح وبناء السفن والعجلات الحربية ، وعلى أرضنا دربوا جندهم ومن نهر النيل انطلق الأسطول المصري حتى التقى مع المشاة والفرسان في دابور [1] وفيها خاضوا أول معاركهم ضد الهكسوس.

قلت متسائلا : المهم يا أنّا .. نبراتارى كانت ملكة مصرية .. ؟

قالت : نبراتارى نوبية .. عاشت في النوبة وسافرت مع زوجها إلى طيبه بعد انتصاره على الرعاة ..

قلت : آه .. فهمت .

وسكت حتى تواصل حكايتها ..

قالت : أحبني الرجال يا ولد، وتغنى ضرابو الدفوف بجمالي..

نبرا أونتى وونبرا

يا من أخذت من القمر استدارة وجهه

ومن طمي النيل لونه

ومن الشمس وضوحه.

---

(١) دابور أول القرى النوبية وتقع جنوب أسوان.

رواني النيل بمائه العذب ، فنمى عودي واشرأبت حماماتي، فصرت أكبر من سني ، فسعى الرجال إلى أبى .. كل رجال النجوع جاءوه .. حتى المتزوجون .. نُجد وسكورى والنور وكُباره وبوشى واحمدانى، وفي كل مرة يسألني : جاءك فلان فما رأيك..؟

أهز رأسي رافضة، لكن قلبي اشتدت دقاته لما ذكر اسمه أمامي .. جاءك ليلاب .. شرد عقلي وزاغ بصري، وبحثت عن لساني فلم أجده، فلما طال انتظاره لكلمة تخرج من فمي، أدرك ما كنت أعانيه من شدة الفرح .. فضحكت أساريره وهو يهتف قائلا: مبروك يانبرا .. مبروك يا ابنتي .

في عصر نفس اليوم انطلقت "هانوميه" منادية الأفراح تجوب دروب النجع لتعلن بصوتها الناعم الرائق : يا أهل البلد .. الليلة ستتم خطبة الجميلة أونتى لود الجبايل زينة شباب الكنوز ليلاب، وكلكم مدعوون لبداية أيام الأفراح، يوم الخميس إن شاء الله ..

ثم تطلق زغرودة طويلة، تلتحم معها زغاريد كثيرة تنطلق من أفواه النساء اللاتي يلتقطن الخبر فيسرعن للمشاركة في إعلانه .. أما الصغار فراحوا يتبعونها وهم ينقرون على دفوفهم ويرددون الأغاني .

وفي المساء ازدحمت الدار بالنساء والفتيات .. انتشرن في أرجائه .. كل واحدة تبحث عن شيء تعمله، لكنهن سرعان ما التففن حولي عندما

التقطت (آشا) صفيحة فارغة ونقرت عليها بأصابعها المدربة، ورحن يرددن أغنية ارتجلوها في التو ..

أونتى يا أونتى يا اسم على مسمى
وجهك مستدير .. حلو .. جميل ..
بدر .. ؟ لا لا .. قمر
قمر .. قمر وأونتى تو
والشعر أسود طويل
والعين أسود كحيل
أى بدر وأي قمر يدانيك
أنت .. أنت يا أونتى ؟

وكما كان عشقي لقرص القمر شفيفا .. رقيقا، كان حبي لجدك ليلاب ..

سألتها متلهفا : رأيته يا أنّا قبل أن يجئ إلى جدى طالبا يدك ..؟

أجابت : رأيته صغيرة، لما كنا نلعب بين الدور أو تحت أجمات النخيل .. كان دائما يختارني عروسا له ، وأختاره عريسا لى لما كنا نلعب عريس وعروسة، لكن ما أن نبتت حماماتي حتى حجبتني أمى في الدار، فلجأت إلى القمر استطلع فيه وجهه، وإلى أفواه النساء أستقى منها أخباره ..

قلت متعجبا : أخباره ..؟

قالت : كان الكل فخورا بشجاعته وقوته فقالوا وقالوا وقالوا وقالوا .. سمعت منهن حكايته مع بعض الدراويش الذين هربوا من جيش المهدى إلى قرانا بعد هزيمة المهدى في معركة توشكي .. كانوا قبل ذلك يجيئون إلى قرانا فيحرقون الأخضر واليابس: وينهبون كل ما تطوله أياديهم، ويبطشون بالناس، فخافوهم، فلما جاء بعضهم إلى قريتنا بعد هزيمتهم جرى الناس ولاذوا إلى الدور و لم يبرحوها، على الرغم من الإعياء الذي كان باديا على وجوههم من أثر الجوع الشديد وعدم النوم ليال طويلة، وتصادف أن كانت فتاتان من نجعنا تعملان في أرضهما و لم تنتبها لذلك ، فخافت عليهما فاتون العجوز، فارتجلت أغنية لتنبههما، دون أن يدرك الدراويش قصدها، وأغمضت جدتي عينيها، وراحت تهز ساقيها الممدتين تحت رأسي هزات تتواءم على إيقاع الأغنية التي راحت ترددها :

بودوس بودوس وانستو [1]

تاركم تاركم تاركم[2]

وِيلي بداسا وانستو [3]

---

(١) اجر اجر يا أختاه

(٢) لازمة تتكرر مع كل مقطع

(٣) فقد جاء الكلاب (تقصد الدراويش) يا أختاه .

تاركم تاركم تاركم

فألقيتا ما بأيديهما وانطلقتا تجريان وتصادف أن رآهمـا جـدك ليـلاب، فسألهما : لماذا تجريان هكذا ..؟

قالتا وقد تقطعت أنفاسهما : الـ .. دا .. را .. ويش

فالتقط كرباجه وجرى ناحية ما أشارتا ، ولم يكد يراهـم حتى انطلـق يسـوطهم بكرباجـه، فالتمسـوا النجـاة وجـروا إلى الأحـراش، لكنـه ظـل يطاردهم حتى أخرجهم من القرية كلها .

قلت لها : ولكن قولي لي يا جدة .. ما حقيقة اسم ليلاب الذي لم أسمع مثله في بلادنا ؟ ..

قالت والفخر يملؤها: اسمع أقول لك : إسمه ذاك من الليل، لأن جدك ما كان يخاف الليل ولا يخشاه .. كان يلف النجوع في سـواد الليـالى ، وكـان يروح وراء الجبال من دون ونسه كلوب ولا فوانيس كمـا يفعـل النـاس في ها الأيام .. كان جدك ياولد زين الرجال .. سيد النـاس ، تمكـن أن يجمـع قلوبهم كلها حوله .. أحبوه لدرجة العشق، وتغنوا باسمه ومناقبه :

"اسمك ليلاب لكن وجهك مشرق كالبدر .

زندك فولاذ مثل الأسد .

تخترق كالسهم قلب الليل .. غير هياب .

ياليلاب.

ومع ذلك فأنت رقيق .. شفيف.

كنسمة صيف ..
طيب .. ودود .
كملاك .."

هذا ما كان من أمر جدك ليـــلاب .. أما عن جدك الكبير عثمـــان بشير – أمباب – فقد جاءني فرحا يسألني متـى تحبين أن تكـون ليلتـك يـا جميلة الجميلات..؟

لم ينتظر جنى البلح وبيعه لتجار أسوان المدينـة ، الذيـن يـأتون إلى قرانـا على متون مراكبهم الكبيرة، الكثيرة الأشرعة، كل عام يجيئون إلى قريتنا التي عرفوا ناسها ودروبها .. وخبروا نخيلها وتمورها .. كل عام يجيئوننا بعـد أن تتخلى حبات التمر المتدلية من عراجينها عـن أرديتهـا الخضـراء لتستبدلها بأخرى حمراء أو صفراء ثم لا تلبث أن تخلعها لـترتدى كلهـا أثوابهـا البنيـة المحروقة .. عندئذ يتكاثر هؤلاء التجار عند أجمات النخيـل نهـارا ، وترتفـع أصواتهم وهم يساومون ناس البلدة في أسعار تمورهم، وفي المساء يشاركون الرجال مجالسهم أمام الدور أو عند سـاحة الجامع ، ثـم يرحلـون إلى قـرى الجنوب بعد أن يكونوا قد اشتروا كل تمورنا ....

جدك عثمان بشير لما أراد أن يفرح بفرحي لم ينتظر حتى يبيـع التمـر ، فجاء يسألني : متى ؟

قلت وعيناي معلقتان بالسماء : ليلة التمام.

فتعلقت أعين ناس النجع بالأهلة .. كل يوم يعتلى السماء هلال أكبر مما كان في الليلة السابقة، حتى اكتملت استدارة القمر، فارتوت الدروب من ضيائه .. باتت أنهارا متلألئة .. ليلتها التف حول ليلاب صحبه .. ليأخذوه إلى النهر .. طوحوا كرابيجهم في الهواء .. اختلط أنينها بصياح الرجال :

هيا يا عريس .. هيا .

لكن زين الشباب رأسه وألف سيف ما يروح بحر النيل إلا أكون معه .. في صدره أخذني .. كان النهر يفيض بمياهه البنيه الطامية العفية الآتية من الجنوب. كل عام يا ولدى كانت تأتينا محملة بالخير فتمتلئ قلوبنا حباً له، خاصة وأنه كان يأتينا بعد أن تشقق حرارة شمسنا القاسية سطح الأرض، وتغرس طول النهار أشعتها النارية في باطنها لتنساب في جوفها، فلا نملك إلا أن ننتظر في لهفة الشوق المياه التي يمتلئ بها مجرى النهر ويفيض لتجرى من الجداول الصغيرة إليها .. تنساب إلى شقوقها العطشى فتشرب وتشرب حتى الارتواء ..

ترتوي فينبثق من جوفها بساط أخضر ناعم ينمو وينتشر .. تجيئوها الخراف لتملأ منه بطونا أنهكتها الحشائش الجافة التي طعمتها طوال شهور ثمانية .. تمتلئ بطونها فتطلق ثغاء حلوا يملأ سماء النجع بهجة وجمالا .. تشاركها طيور القمري والزرازير فرحتها فتروح تضرب الهواء بأجنحتها

وهي تدور وتلف في حلقات ضيقة قبل أن تحط على الأرض الخضراء لتنقرها نقرا متواصلا بمناقيرها القصيرة المدببة ..

قلت : لكن ماذا بعد أن أخذك معه إلى بحر النيل ؟

قالت : غسلنا وجهينا من مائه ، ثم قال لي : اغترفي غرفة واحدة أو ثلاث أو خمس واشربي فالله واحد ويحب كل ما هو وِتر.

قلت : الدين للديان ، وها النيل يا زين الشباب لكل أبناء النوبة ، يشربون منه كيفما يشاءون .. وشربت حتى شعرت أن بطني ستنفجر.

قال : عنيدة مثل أجدادك .

ثم ضحك عاليا قبل أن يردف قائلا : حتى لما عرض عليهم الغزاة المسلمون اعتناق الإسلام أجابوهم قائلين : سابريويه .. أجلجى بشاور يروا [1] .

لم يمهلنا الرجال فراحوا يتصايحون : هيا يا عريس .. هيا يا عروسة ..

أخذونا بينهم . يسبقنا ضرابو الدفوف .. تجرى نقرات النجرشاد في الفضاء إلى النجع بأغاني المحبين .. تصدم بالجبال فترتد إلينا عذبة ، رائقة صافية كنسمات الصيف التي يحملها إلينا . نقترب من الدور فتخرج العمات والخالات بزجاجات العطور، ينشرن رذاذه فوق الرؤوس .. تنتشر الزغاريد حولنا .. تتصاعد .. تغطى سماء النجع .. ينتشر الفرح .. يتقافز

(١) انتظروا حتى نشاور عقولنا.

فوق صفحات الوجوه وهي تزفنا إلى حجرتنا التي خصصت لنا في بيت أبي .. ضمتنا أربعين ليلة بالتمام والكمال .. في ساعات الضحى يا ولد كانت تأتيني لداتي. يسألنني ضاحكات وهن يقرصنني :

هل يقوم عريسك بواجبه يا بنت القبائل .. أم نقول لخالتنا تقطع عنه الحمام..؟

قلت : لا والله يا بنات القبيلة .. إنه يأخذني كل ليلة إلى داخله .. بين ضلوعه يحتويني وأحتويه بين ضلوعي .. يرتشفني وأرتشفه .. نعيش سكرى حبنا .. نغيب عن كل الدنيا حتى يشقشق الصبح، فنخرج إلى بحر النيل .. ينزل إليه كغزال رشيق .. ضاربا صفحة الماء كما لو كان يعزف على الطنبور أغنية عذبة عشقتها ، فأتبعه كأوزة خفيفة نشطة لنرقص سويا رقصة رائعة .. لاهى رقصة الأراجيد ولا الشمبال ..

من حولنا تلتف أسراب راقصات الفرى [1] المحترفة لتتعلم منا .. ثم نخرج من الماء لنطير إلى عشنا كحمامتين خفيفتين، قبل أن يخرج الناس من دورهم.

وفي الليلة الواحدة والأربعين وجدنا نفسينا عريسين من جديد.. نسير في خطو بطئ بين ضاربي الدفوف والمغنين وكل ناس النجع..

عاشج النبي يصلى عليه

---

(١) البلطى .

صلاة النبي يا محماااد

الورد كان شوك من عرج النبي فتح

عريس عريس عريس

وعند دارنا الذي بنى فوق ربوة عالية عند سفح الجبل وراء الدور الواطئة، وقفوا يغنون وهم يدقون الأرض بأقدامهم العفية.

الليلة يا سمرة يا سمارة الليله يا سمرة

انا باحكى ليكى

ياسمره

وانت لي تحكي :

يا سمره

الليلة يا سمرة يا سمارة الليلة يا سمره .

ودخلنا الدار من الباب الكبير المطل على النهر بأقدامنا اليمنى .. استقبلتنا البنات بعطر الصندل والمحلب والزغاريد .. والجدات باللبن الرائب وحبات التمر تبركا بهما ، إذ كان سيد الأنام محمد يعيش عليها أياما طويلة .

عرفنا غرفة نومنا لما رأينا "عوض تبيد" واقفا أمامها، ضاربا الهواء بسوطه المنقوع جلده في الزيت لليال طويلة، مهددا كل من يحاول الاقتراب

منه، حتى أنه حال بيننا وبين دخولها حتى نقده جدك ورقة من فئة الخمسة قروش.

إيه .. ليال عشناها يا ولدى كما الحلم .. لم يعشها في الحكايات الشاطر حسن مع ست الحسن والجمال، ولا عنترة مع ابنة عمه عبلة ..

كانت ثمة دموع تترقرق في عينيها المحفوفتين بتجاعيد دقيقة وهي ترنو إلى البعيد .. خافت أن تنحدر على خديها فمسحتها بباطن يمناها.. خفت أن تستمرئ الصمت فأسرعت لآخذها منه..

سألتها : ثم ماذا يا أنّا ..؟

قالت : في صباح اليوم التالي، وقبل أن تغادر العصافير أعشاشها حمل فأسه، وقبل أن يهم بالخروج سألته وعيناي معلقتان بالسماء التي لم تكن قد خلعت ردائها الرمادي الشفيف : إلى أين يا زين الشباب ..؟

قال : إلى هناك ؟

وأشار إلى ما وراء الجبل واستطرد.

هناك سهول واسعة سأحاول معها .

سألته : والماء ؟

قال : سأحفر بئرا ..

سألتها : ولماذا وراء الجبل، والأراضي أمام الدور حتى النهر كثيرة ؟

قالت : لقد أراد أن تكون له أرض خاصة به هو .

قلت : وأراضي الجزيرة - آرتى ..؟

قالت : أراض شديدة وعفية، لكن كل ناس الجزيرة كـانوا راكبينهـا .. المهم يا ولدى جدك ما كان يهدأ ولا يستقر في مكان وهـو شـاب .. مـرة يشتغل بحارا في البوسته، ومـرة تـاجرا جـوالا، يلـف النجـوع والبـلاد، مـن الشلال حتى أدندان، لكن مـن يـوم مـا تزوجـني تـرك السـعي في بـلاد الله الواسعة وبقـى في النجـع .. المهـم أن جـدك شـال فاسـه وراح وراء الجبـل للأرض البراح .. شق قلبها ورمى لها البذور ورواها بعرقه .. كل يوم كـان يرويها بعرقه. وفي يوم تشققت الأرض وخرجـت منهـا سيقان قويـة على رؤوسها ورق أخضر صغير .. يهزها الهواء فتتمايس على استحياء . يوم .. اثنان.. ثلاثة نبتـت الثمـار.. أطلـت إلى قـرص الشـمس تنهـل مـن أشعتها الذهبية، فتنمو عفية.

كـل نـاس النجـع هرولـوا إلى الأرض.. قـابلتهم أعـواد الـذرة الطويلـة السامقة.. تعالت صيحات الفرح وهم يتنقلون مـن بـين الأحـواض المربعـة، الجسور، البتون، ثم إلى البئر التي جادت بمائها بعد حفر أمتار قليلة .

صاح الرجال :

- حبابك عشرة ياليلاب.

- ولد أبوك يا زين الرجال .

- أذرة عفية لم نر مثلها في الجزيرة بعد الدميره.

* * *

كانت الفرحة تطل من الوجوه، والآمال تتواثب في الصدور، إلا أنا وجدك .. لا تتعجب هكذا ، فقد مر على زواجنا طوفان وطوفان .. طوفانان، وأرضي لم تنبت. ظلت مجدبة ، جرداء .. على الرغم من أن جدك كان يأتي حرثه كل ليلة .. يعزقها بفتوته ويرويها ماء شبابه ..

اعترانا القلق . الهم .. الحزن .. ولم يكن أمامي إلا الصبر فتذرعت به ، أما جدك فقد لاذ إلى الصمت .. صمت طويل خشن .. أحسست به يلتف حول عنقي حتى كاد يزهق روحي ، وألسنة الناس شراشر تدمى روحي .

- نبات صبار .

- نخلة متآكلة الجمار .

- عقيم لا خير فيها .

- والله النخلة العقيم أفضل .. لها ظل وحطب على الأقل ..

وهو مسكين. محاصر من كل الناس وأعين الشباب التي تتهمه بالعجز .. وكلام العجائز الذي يحمل ألف معنى، وإلحاح أمه وأخواته .. أحجار رحى ضخمة تطحنه.

- تنتظر فيضانين .. لم ..؟

- من فعل مثلك في النجع كله ..؟

- كل البنات ينتظرن إشارة منك .

- لماذا أنت صامت .. يكون العيب منك ؟

تلفح بالصمت والصبر .. حاولت كثيرا أن أبكى عندما أكـون وحـدي لعل الدموع تخفف من كربى، لكنهـا تـأبت علـيَّ .. تحجـرت في مـآقيَّ .. حتى كان صباح أحد الأيام . كنـت أسقى فسيلة النخـل الـتي غرسـها في وسط الحوش عندمـا سمعـت طرقـا متوتـرا علـى البـاب الغربـي المطـل علـى الجبل .. اشتدت ضربات قلبي.. من يكون الطارق في هذا الوقت ..؟

الطـف يـا لطيـف .. استر يـارب .. تخـاذلت قدمـاي .. اسـتندت إلى الجدار .. صحت فجأة أسأل عن الطارق .. من بالباب ؟

– افتحي يانبرا .. افتحي

(عمتي مدينة النور ..؟ يامصيبتى .. هل حدث شئ لأبى..؟).

فتحت الباب فأخذتني إلى صدرهـا وخطـت داخلـة .. قـالت لمـا رأتـني متوترة : أولاد الحرام زنوا على رأسه يانبرا.

تساءلت : عمن تتكلمين ؟

قالت : أمه وأخواته يردن أن يزوجنـه .. عرضـوا عليـه طمايـه حـاج ، وسبيله عوض ومسكه دهب ليختار واحدة منهن .

قلت منزعجة : وهو .. المهم هو ..؟

قالت : نقطة الماء خرمت الحجر الصواني يابنتى والرجل كل يوم يزنون على دماغه، وما حيسيبوه إلا أما يزوجوه . ديري بالك وفكري زين .

قالت جملتها الأخيرة وهي تمرق خارجة من نفس الباب الذي دخلت منه .

تنامى الهم في صدري والقلق ، وعرفت لماذا يقضي رجلي كل وقته في أرضه.. أليس كسبا للوقت واختيار عروسه الجديدة ..؟

نعم .. هو كذلك .. وربما ليهرب من زن أمه وأخواته : كيف غاب عنى ذلك ..؟ وصوبت عيني إلى الباب الكبير المطل على النهر، وددت أن أجرى صوبه، لكنني آثرت الانتظار إلى أن يجئ الليل ، فالليل حالك، والليل ستار وانتظرت مرغمة أعد الثواني .. أتعجل بجيئه ليطوينى في عباءته السوداء، بعيدا عن الأعين لساعة أو بعض ساعة. أتخلص خلالها من همومي، ولكن متى يجيء ؟ وكأن الزمن قد توقف تماما، وتأبت أشعة الشمس البرتقالية الواهية أن تتزحزح من مكانها في السماء إلى الغرب .. ناحية الجبال المنتصبة وراء الدور .

وقبل أن يخنقني تلكؤها وجدتها تسقط في شباك الغيوم الداكنة التي راحت تزفها لمرقدها الأزلي رويدا رويدا . بدأ وجه القمر الضحوك يأخذ مكانه في السماء وعلى استحياء راح يرتوي من لونه حتى صار في لون الماء الرائق . بسط ضياءه على النجع. تسرب من بين الجدر إلى الدروب .. فتسللت من الدار خارجة قاصدة النهر ..

كان سطحه نائما في صمت رهيب .. ارتعبت في البداية، لكنني سرعان ما تخلصت من خوفي، ورحت أزحف نحو النهر الذي تكسرت مياهه عند

قدمي الحافيتين. سرت رعشة في عروقي .. في باطنه غرست عيني. وجدتني أتمتم.

إيه يا بحر النيل .. يا من تنساب مياهك إلى قلب الأرض العطشى فترويها.. يرتوي النبت فيتفجر في باطنها .. تكبر السيقان وتغلظ محملة بالخير .. الحبة تغدو عشرة .. مائه .. مئات . تمتلئ الحواصل [1] لأيام آتية عجاف .. تطمئن القلوب إلا قلبي يا بحر النيل .. قلبي كساه القلق والخوف، فأرضي لم تزل قفرا .. تأبت وامتنعت وحجبت خيرها، وقد جئتك الآن لأنهل من فيضك عله ينساب إلى رحمي ويروى بذور رجلي ليكون الثمر، فترتوى نفوس ظمأى طال اشتياقها لنبت الولد، فهلا أوصيت ماءك يا بحر النيل بي خيرا.

كانت المياه في مجرى النهر تشدني إليها .. فوجدتني في أحضانها ...

احتوتني حتى الصدر .. شربت وشربت .. ارتويت .. شعرت وكأن شيئا داخلي ينشق ويبتلع الماء .. تتفجر البذور .. تنمو البراعم .. تتفتح .. تنضج الثمار .. أجرى إليها وأجرى لأجد نفسي في بهو مظلم، واقفة أمام إله الإخصاب في معبد البريا .. توجهت إليه بكل أشيائي متمتمة :

---

(١) جمع حاصل وهو ما تخزن فيه الحبوب.

يقولون أنك لا ترد سائلك .. فهل عرفت مرادي ..؟ أنا أبغي الولد .. ساعدني كي لا يهرب مني إلى أحضان امرأة أخرى ، يعطيها من حلاوة بذره، فتعطيه ما عجزت عنه، فيكون لها أبدا وأموت أنا حسرة وكمدا.

أعادت جدران البربا الغارقة في الصمت صدى صوتي .. ارتعبت فوليت الأدبار وجريت وجريت حتى دخلت الدار وأغلقت الباب .. اغتسلت وتوضأت وفي الحوش السماوى جلست مستندة إلى جدار المندرة .. تعلقت عيناي بالسماء وهتف صوت من داخلي :

يارب .. ووإلهي .. ونور .. يا من ترزق من تشاء بغير حساب .. يارب وإلهي يا خالق الحبة في جوف الأرض فتنمو وتخرج إلى النور محملة بالثمار من كل لون .. يا إلهي ونور .. يا من خلقت آدم من طين ونفخت في مريم من روحك فكان يسوع المسيح، هب لى وزوجي من لدنك الخلف الصالح كي تقر به عيني وتقر به عينه.

بالراحة تسرى في كياني شعرت فارتحت لمجلسي في انتظار سيدي الذي جاءني متجهما .. حائرا .. زائغ العينين .. زام الشفتين .. أدركت أنه يقاسى من هم ثقيل .

قلت : هون عليك يا سيد الرجال وأشركني في أمرك، علني أستطيع أن أحمل عنك بعض همومك فأخفف عنك بعض الشيء ..

قال وقد أشاح بوجهه عنى : لا شيء .

في كفى أخذت كفه ، واحتويت بالأخرى جانب وجهه ، وأخذته إلى .. أطعمته من جنيّ وسقيته عصير رماني ، ثم قلت له:

إنني أدرك ما تكابده من طول انتظار للولد، ووا لله لا يقل اشتياقي له عن اشتياقك .. في لهفة انتظره كلما أتيتني لأسقى عروقه من دمى فينمو ويخرج من مكمنه حاملا سماتك واسمك .. أرضعه حناني وأعطيه للشمس لتسقيه من دفئها، وللقمر فيعطيه من ضيائه، ولبحر النيل ليرويه من مائه، ومن كل هذا يأخذ لون وجهه، فيتباهى به ناس نجعنا على كل قبائل الكنوز، وتتمناه كل بناتها .. كل بنت تنتظره أن يأتيها على حصانه الأبيض ليأخذها تحت جناحه ويجرى بها ويجرى مبتعدا عن القرى والنجوع وأعين الناس جميعا . انتظره يا سيد الرجال .. انتظر مجيئه مع الفيضان الآتي .

أشرق وجهه كإشراقة الصبح الندية .. لمعت الفرحة في عينيه .. صاح وعيناه معلقتان في السماء :

حقا ليس شيء ببعيد على ا لله.

وتقرفص بجواري وراح يرنو إليّ والفرحة ترتع في عيني

قلت : غدا يأتي .

قال : أو بعد غد .

قلت : هيا نختر له إسما .

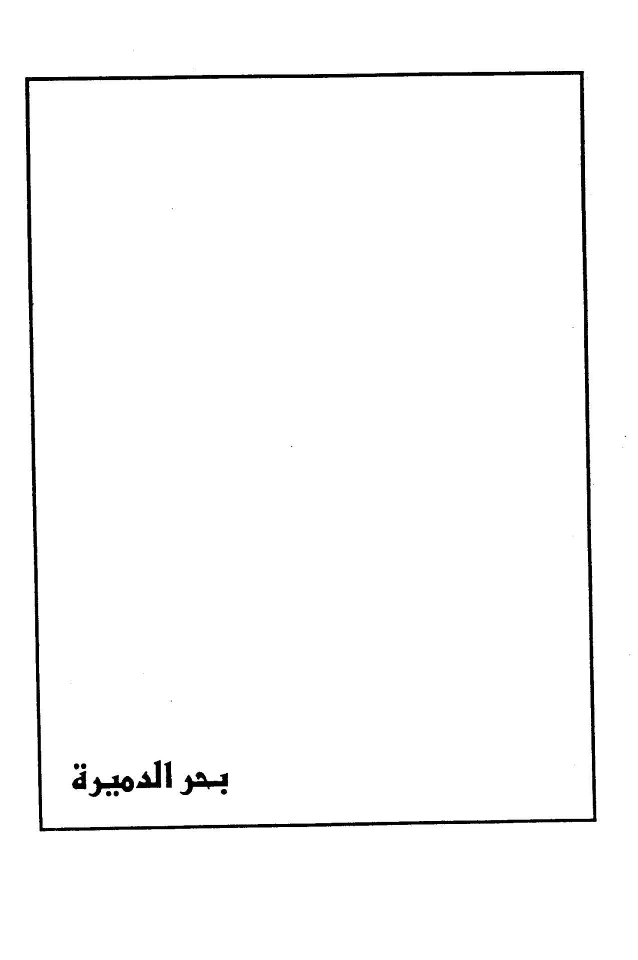
قلت : إن كانت بنتا نسميها حور .

قال : وإن كان ولدا نسميه بحرا .

قلت : وعيناي ترنوان إلى ماء النهر وقد احتضن ضوء القمر : النيل .

قال : نسميه بحر النيل .

وارتمينا في أحضان فرحتنا الوليدة والتحفنا بأنفاسنا وانتظارنا الملهوف لليوم الغارق في ظلمة الغيب.


بحر الدميرة

جـاءت البوسته - البـاخرة - الهكسـوس - بخطـاب أبـى - أمبـاب - الذي سافر إلى بر مصر منذ ثلاثة شهور إلى آبادول - جــدى. ولأن النجـع كله كقبضة يد سرى الخبر في كل أرجائه .. دخـل كـل بيـت وخـرج مـن البيوت إلى النجـوع القريبـة، وقبـل أن يغيـب قـرص الشـمس وراء هامـات الجبال الراسية وراء الدور الواطئة كان الخبر قد شـاع في القـرى المجـاورة .. جاءت العمات والخالات والجدات وبنات الأعمام والأخـوال .. القريبـات والبعيدات، بعد أن خلعن على وجوههن علامات الحزن والفرح .. الفرحـة بأبى، الذي استطاع أن يغزو مصر المدينة ويجد له فيها مكانـا خـلال أشـهر معدودات، أما الحزن فكـان لفـراق إنـدى - أمـى - الـتي سـتخضع لرغبـة زوجهـا - أبـى - وتسـافر إليـه، وهـي الـتي لم تفـارقهن منــذ أن أطلقــت صرختها الأولى عند خروجها من مكمنها المظلم الدافئ.

في الحوش تكومن حول جدتـى - أنـاو - ، وأمـى - إنـدى .. جدتـى نفشت ريشها كالديك الرومى .. تروح وتجيء بينهن وهي تقول متباهية :

زوج ابنتى ماتوجا - الله يحميه من أعين الحريـم اللاتـي سـافر رجـالهن منذ شهور طويلة ولم يرسلوا لهن مليما أحمر - أرسـل مكتوبـا لهـا وحوالـة بثلاثة جنيهات كاملة. وابنتي زينة البنات ستسافر له وتعيش معه في مصر أم الدنيا ..

وتسكت قليلا ثم تمص لسانها وتستطرد قائلة .. لكن رحالة ماتوجا بشير ، وماتوجا عثمان وماتوجا إدريس ما أرسلوا ورقة فاضية من يوم تركوا النجع وسافروا.

أبادول - جدى - كان يجلس في المندرة متربعا على أريكة ، عيناه ملتصقتان بسطح الماء الجارى في مجراه كعادته، وأذناه مشدودتان إلى أصوات الحريم في الحوش، فجأة زعق غاضبا : إسكتى ياعشيرة .. عيب . أمسكت جدتى لسانها وخرست، لكنها لم تستطع أن تجهض فرحتها التي ظلت تتقافز في عينيها وفوق شفتيها.

أما أمى فقد جلست بينهن متصنعة الحياء .. جسدها يشغل حيزا بينهن وعقلها شارد حيث تعيش روحها هناك في مصر .. في رأسها تتقافز علامات استفهام كثيرة .. متداخلة، لا تعرف لها إجابة ..

(ترى كيف تكون مصر هذه التي يسافر إليها كل رجال النجع.. كبيرة أم صغيرة في حجم قريتنا قورته ، وهل يعرف الناس بعضهم ويتزاورون، أم أن كل واحد يعيش في حاله .. وهل هناك نيل يجرى أمام الدور ، وبماذا يعمل ناسها .. بالفلاحة .. بالتجارة، وماذا يحملون في جنوبهم .. قلوبا في صفاء الحليب .. أم .. سوداء في لون الطين ؟.

أسئلة كثيرة حيرتها .. أحست بدوار، ونبت خوف من المجهول وترعرع في كيانها، فتهرب منه إليه، تتلصص بعينيها .. تصطدم بهن .. تتأفف .. تسأل نفسها .. متى يذهبن ؟ يجب أن أتجمل قبل الذهاب إليه .. أتجمل ؟ يا عيب الشوم .. ماذا يقول ناس النجع..؟.. ليقولوا ما يحلوا لهم .. الليلة أتعطر بالصندل والمحلب.. وغدا أخضب جسدي ويديّ ورجليّ .. أنقش عليها الورود والزهور، وليلة سفري أتعطر بعطر بنت السودان الأصيل ، وفي حجرتنا هناك أنتظره كل ليلة ليأخذني بين ذراعيه .. يضمني إليه .. يهصرني .. يسقيني حلاوته وأسقيه حلاوتي .. أرتوي فيسترد جسدي اليابس طراوته ووجهي حلاوته ..

* * *

جدى – أبادول – لم يكن راضيا عن سفر أبى .. قال له : أحتاجك بجواري .

أجابه أبى : الأرض غرقت والرزق شح يا أبى .

قال له جدى : نستصلح أرضا وراء الدور ونحفر بئرا .

لكن أبى أصر على السفر، وأذعن جدى في النهاية.

في صمت كانت أمى تبكى .. الأسى يرافق خطوها .. تدنو أيام رحيله .. تجود عيناها بالدموع، فلما حانت اللحظة وأطلقت البوسته صفيرها ولولت بصوت مكتوم ..

جدتى – أناو – نهنهت وهي تأخذه إلى صدرها .. قبلته قبلتـين ، قبلـة على خده الأيمن وقالت : لا إله إلا الله ، وقبلة فوق جبينه وقالت : آديـلا، ولما انفلت من بين يديها قبل أن تخونه دموعه وتنهمر على خديه قالت لـه : جمعت الرمال التي داستها قدمك اليمنى في هذا الكيس ، سأعلقه في سـقف حجرتك لترجع .. حتمـا سـترجع يـا ولـد .. قـل إن شـاء الله .. قلهـا يـا ولد ..

قال أبى وهو يضع باطن يمناه علـى صـدره : إن شـاء الله وإنـدى.. يـا أمى .

جدى – أبادول – لا يحب لحظات الوداع .. لم أره أبدا في المـوردة .. أخذ عصاه وخرج في الصباح الباكر لا أعرف إلى أين.

دارت دواليب البوسته الضخمة فهدرت الميـاه .. اسـتدارت .. أخـذت أبى وأعطتني مؤخرتها .. نفث منخارها العـالي دخانـا أسـود.. بـات النهـر أسود، ومياه بحر النيل وهامات النخيل .. ظلت البوسته تبتعد وتبتعـد حتـى ابتلعها الأفق البعيد .. جرجرت الخطو صوب الدور ، طالعني وجه أبـا دول الحبيب .. أبدا لم أر الحزن يغلف صفحتـه .. كـان مصلوبـا في ظـل جـدار يرنو إلى النهر .. إلى الطفل الصغير المحفور صورتـه في قلبـه ، وقـد اختطفتـه البوسته في غفلة منه وابتعدت .

كيف تركته يفلت مني .. كيف ؟

كانت شفتاه ترددان السؤال وقبضته تدق الجدار .

قلت مشفقا : إيه وآبا دول ..؟

قال وهو يمسح على رأسي : أبدا يا ولدي .. أبدا .

* * *

غربت الشمس ولبست كل الأشياء حللها الرمادية الشفيفة، وهبت نسمات المساء الطرية .. أردت أن أتخفف من الحزن الجاثم فوق صدري .. جريت إلى النهر .. ألفيت رفقتي يلعبون، رأوني فالتفوا حولي صائحين :

– صحيح بتسافر لأبوك ياذا النون ..؟

– قل الحق .. ياذا النون .

– تعرف ياذا النون هناك الحريم غير الحريم ، والأكل غير الأكل، حتى النيل غير النيل.

سألتهم : لكن وين مصر المدينة اللي يسافر ليها ناسنا ..؟

قال عاشور : الذي سافر إلى أخيه في الصيف الماضي :

هنااك في آخر الدنيا .

قلت مرتاعا : آخر الدنيا ..؟!

قال مصطفى : آخر الأرض ..

قلت : مافي أرض بعدها ..؟!

قال : فضاااا .. اللي يسقط هناك قول عليه يارحمن يارحيم ..

سألت عاشور : وناسها.

قال : يا سلام سلم من ناسها .

قلت : أعوذ با لله من الشيطان الرجيم، وا لله ما أسافر ولو بقطع الرقبة.

استطرد عاشور قائلا : بحر غويط يا خوي مليان سمك كبير .. متوحش.

سألته : وفيه سمك صغير ..

قال : الكبير ما يخليه .. ياكله أول بأول ..

تراكم الخوف في نفسي .. بات تلا يجثم فوق صدري .. تتواتر أسئلة كثيرة في رأسي .. وأبى كيف يقدر على العيش فيها ؟ وأمى هل ستقدر على التعامل مع ناسها . ولو أنا سافرت إليها ، هل سأقع في الفراغ بعد نهاية الأرض وأضيع ؟؟ ولكن من أين عرف أترابي خبر سفري قبلي ..؟ هل سمعوا أبى يتفق مع جدي على أن يرسلني إليه ..؟ ولماذا لم يقل لي جدي ..؟

تسللت إلى الحظيرة .. ركبت دابتي .. ضربت حوافرها رمال الدرب المتدلي إلى النهر، استقامت بها الدروب المؤدية إلى نجوع الشمال. ثم تخطتها

إلى الدكه، حيث أقام فيها أخوالي بجوار الأراضي الزراعية التي حصلوا عليها من المشروع الزراعي الذي أقامته الحكومة هناك ..

* * *

زعق جدي في وجه أمي : لا .. لن تسافري .

دست أمي حزنها في قلبها.

من يوم سافر أبي وفارقنا وجدى لا يطيق أحدا يتكلم عن السفر، فكيف يوافق الآن على سفرها وسفري معها ؟ سيكون في ذلك طلوع الروح .. اعتزلتنا .. أوت إلى ركن قصي ، بعيد يحجبها عنا .. سدت أذنيها كي لا تسمعنا، وأغلقت فاها ، فلم تشترك في حديث .

ماتوجا ... ماتوجا يابنيتي .

جدى – أبادول – يصيح باسمها، لكنها أبدا . أبدا لم تسمع، وبدا وكأن الأيام تتغذي على جسدها، فبات هشا واهيا كما عود الحطب، وعينا البقر الوحشي صارا ندبتين في جدار مهجور.

جدتى – أناو – قالت لجدى – أبادول – البنت تموت ياشيخ.. ذنبها في رقبتك ..

ارتجف الشيخ .. تزلزلت أركانه . صاح : ذا النون .. ياولد ياذا النون ..

مذعورا جريت إليه .. هوى وا أبادول.

استعاذ با لله من الشيطان الرجيم وارتشف من كوب الماء ثلاثا، ثم قال :

هات ورقة وقلما واكتب لأبيك خطابا .. قل له ينتظرك وأمك في القريب..

وكأنه تخلص من هم ثقيل حرمه النوم ليال طويلة، ثم تمدد على ظهره وغرق في النوم العميق .

* * *

من البعيد أطلت شواشى النخيل وقمم الأشـجار .. أسـرعت الدابـة .. رآها حمار مقيد إلى جزع نخله .. نهق في شبق .. حاول التخلص من قيده.

أطلت علينا الدور .. كانت الشـمس في مركـز السـماء .. كـل النـاس مختبئون وراء الجدر .

مهمود آنجى هووى .. هوى - يا خال محموورد.

رآنى قدامه فملأته الوساوس .. ركبه الشيطان.

- يا ساتر أستر .. إيه ياذا النون ..؟

قلت أطمئنه : لا شيء يا خال .. كل ناس نجعنا بخير .

قال مرتابا : فلماذا تجيء في عز القيالة ..؟

قلت : جدى - أبادول - يريد أن يرسلني لى أبى .

وجريت إلى المزيرة في مركز التحويشه ، أسفل النخلة العجوز.. رحـت أمتص الماء في تلذذ .. طريت ريقى الذي كان كما الحطب.

انبسطت أساريره .. قال : أكيد أنك ارتكبت ذنبا أغضبه منك.

قلت : أبدا وا لله يا خال .

ولما طال انتظاري لكلمة تخرج من فيه قلت : أنا لا أريد السفر.

قال مندهشا : أتكره أن تترك نجعك الأجرد الكالح وتسافر إلى مصـر .. أم الدنيا ..؟

قلت : نجعي أحسن البلاد .

سألني : وأمك سوف تسافر لأبيك .. ألا تحب أن تكون معها؟
قلت : أسافر إليها في الإجازة .
مسح على رأسي وقال مستسلما : ننتظر حتى تهدأ الشمس .
أومأت برأسي وقلت : نعم .. ننتظر.
– أهلين مدينة .. أهلين بحر.
– سمعناك تقول لأبينا انك ستسافر .
كانا ينتظرانني في الحوش حتى انتهى من الحديث مع أبيهما .
– لا .. لا .. لن أسافر .
– تعال نلعب الحين .
قال آنجى – خالى – الغدا أولا ياكلاب.

وقبل أن نجتمع في المندرة حول صينية الشاى غلبني النوم .. تمددت فوق الرمل الناعم متوسدا ذراعي .. غرقت في رحابه ساعة أنستني قسوة الهجير .. جاءتني مدينة الصغيرة بالشاي.

"إتو بهر" .. ولد يابحر .. جهز لى الركوبة يا ولد ..

جرى بحر إلى الحظيرة . بينما كان خالى محمود وهاب يلف شال عمامته حول طاقيته البيضاء التي غطت رأسه تماما .

جذبت مقود دابتى لأتأخر عن خالي ولو بخطوة واحدة كما جرت العادة ، لكنه أمرني أن أحاذيه، استبدل قرص الشمس رداءه الأصفر المتوهج

بأردية حمراء قانية ، والغيوم الرمادية السوداء تتراقص حوله .. تزفه إلى مخدعه .. هبت نسائم رقيقة تداعب الوجوه وكأنها تعتذر عن قسوة القيظ .. يخرج الرجال والصبية تباعا من وراء الجدر .. يتراصون في حلقات أمام الدور ..

– سلام آليك ووهمد .. تيبرى آبدون ..؟

– أهلين مهمود وهاب .. فادلوس ..

أقسم حمدون عواض أن ننزل بداره لتناول الشاي ، لكن خالي خاف من زعل ناس النجع إن لبى دعوته ، خاصة وأن الكل دعوه لذلك ، فصحبنا إلى المضيفة الواقعة في طرف النجع ، أمر ولده هلالا بسرعة إحضار الشاي .

أن يسرقنا الوقت خاف خالي .. أسرعنا إلى دابتينا قبل أن ترفع صينية الشاي من أمامنا على غير العادة .

– أوووه .. مهمود وهاب .. كيفك يا رجل ..؟

– لولا هذا العكروت ما شفناك .

– أخذتك الدكة منا يا شيخ .

صاح الرجال المتكأكئون في وسعاية الجامع فرحين برؤية آبحى محمود .. كل يوم يجتمعون في هذا الوقت بالذات .. يجلسون في دوائر . يثرثرون أو يلعبون الطاب أو السيجة ، حتى ينطلق صوت المؤذن لصلاة العشاء ..

مسحت عيناي المكان . التقطتا "مرسال نجد" متقرفصا في ركـن .. غارسـا عينيه في السماء، وكأنه يسبح بفكـره باحثـا عـن شـيء، ولكـن فيـم يمكنـه التفكير .. خفت أن يغلبني الضحك لما تذكرت ما كان منه عصـر الأمـس، بعد أن رست مركبة باشرى بالموردة .. جاءت مـن أسـوان محملـة بأجولـة الحبوب لحساب جدى - أبادول - الذي كان قد ذهب إلى الشرق مضطرا ليطمئن على جدتى - أناو - طمايه النور - ابنة عمه - الـتي علـم بمرضهـا من ناس المحرقه ، وكلف مرسالا باستلام الأجولة من باشرى بعد التأكد من عددها .

- ديـر بـالك زيـن يامرسـال وتـأكد مـن عددهـا .. عشـرون جـوالا يامرسـال بالتمـام والكمـال ... عشرون جـوالا .. فهمـت ..؟ إيـاك أن تنسى ..

* * *

لم يكـن جـدى بـين أكـوام الرجـال المتلطعـين بالسـاحة . أحسسـت بالراحة .. أخشاه على الرغم من حبي له .. بالضبط كحبى لبحـر النيـل .. أقبل عليه وأهرب منه .. أحبه وأهابه .. أقدم نحوه وأحذر ثورتـه، وأبـادول - جدى - طيب . حنون .. إلى صدره يـأخذني .. يغـرس عينيـه في عيـني ويناجيني ..

تذكرني بأبيك في صباه .. بشقاوته وعناده، لكن أباك يا ابن القبائل ما كان يهاب شيئا، كان له قلب أسد، وقوة الحصان وصبر الجمل، فهل لك هذه الصفات ..؟ سأختبرك يا ولد .. سأجعلك تحضر لي العشاء في أرضي هناك .. وراء البربا - المعبد - ستجيئني وحدك يا ولد .. أليس كذلك؟.

وقبل أن أجيبه : نعم ياجدى، رأيت عينيه قد سافرتا إلى البعيد ..

تنهد في أسى، ثم قال وعيناه تتجهان إلى بحر النيل : ليتك ابتلعت هذه الجبال كلها وتركت لنا جزيرتنا - آرتى.

قلت مندهشا .. آرتى ؟!!

قال : كانت جزيرة كبيرة واسعة، كل ناس الجزيرة كانوا يزرعونها ..

في عيني اتسعت مساحة الدهشة .. التقط السؤال من طرف لساني قبل أن أنطق به ..

احتشدت كل الأحزان في صوته وهو يقول .. ابتلعها النهر. امتلأ بحراه بالماء . بنوا الخزان هناك في الشمال ليحتجزوا الماء أمامه .. فاض وابتلعها.

سألته : ولماذا بنوا الخزان يا جدى ؟

قال : كى تنمو جزر هناك .. جزر خصبة، تنبت الحبوب والثمار فتتورد وجوههم وتنتفخ جيوبهم، وتبتلع المياه هنا أرضنا وجزرنا لنموت جوعى .

طاف سؤال في رأسي ولماذا لا تنمو الجزر هناك ، وتبقى جزيرتنا ياجدى؟ لكنى أشفقت عليه، إذ بدا وكأنه يحتبس دموعا تحاول أن تفلت من عينيه.

* * *

انتفخ القلع بالهواء فاندفعت مركبة شلالى فوق صفحة ماء النيل .. تعلقت بها الأعين حتى رست في المؤردة، التصقت بجدران الشاطئ فرمى الولد معتوق شلالى الحبال إلى الشاطئ .. ربطها الرجال في جذع شجرة الكافور الواقفة وحدها بالقرب من الشاطئ .. صاح الرجال :

همد السلامه باشرى هووى .. حمد الله على سلامتك يا باشرى.

انفرجت شفتاه عن أسنان بنية غامقة من أثر المضغة والأترون .. طول النهار يدسهما في فمه، وتحت لسانه .. يمتصهما ثم يروح يبزق سائلا بنيا غامقا .. يقذفه من بين شفتيه، ونزعق فيه : الله يقرفك ياشيخ – ليرد علينا قائلا : الحمد لله . الحمد لله .

جرى الرجال إلى الصقالة .. على ظهورهم جاؤا بأجولة الحبوب .. تقرفص مرسال عند طرف الصقالة المرتكزة على أرض الشاطئ ، عيناه ملتصقتان بالأجولة المنقولة من بطن المركب إلى المووردة .. مرددا رقما ويرسم خطا بسبابته على الرمال .. واهد .. همسه .. تمانيه ، ولأنه لا

يعرف الأرقام التي تلي الرقم عشرة فقد اكتفى بإضافة خط جوار الخطوط الأخرى كلما لمح رجلا يحمل جوالا ، فاتفقنا فيما بيننا على أن نمحو هذه الخطوط لنرى رد فعله ..

بسرعة انتصب عاشور واقفا وضرب جبارا على قفاه وجرى صوب العجوز وداس على خطوطه، فتبعه جبار وهو يردد .. تضرب وتجري يا ابن الكلب، ومحا البقية الباقية من تلك الخطوط بقدميه .

انتصب مرسال واقفا .. نظر نحونا بغضب وهو يدمدم .. صُرصى . وِلى .. ولما سمع قهقهاتنا راح يحثونا بالرمال ويقذفنا بالسباب . هـولات .. كلاب ، لكنه سرعان ما أهملنا لما أبصر جوالا على ظهر رجل .. زعق قائلا وهو يشير لي كوم الأجولة : دى كله لازم إنزل المركب واطلع تاني .

كان قرص الشمس الأصفر المتوهج متعامدا على الأرض، يرسل لهبا يشوى الوجوه والأبدان ، نسى الرجال ، تعبهم واستغرقوا في الضحك وهم يسألونه :

– لماذا يامرسال ؟

فيقول في إصرار : لاازم كل دى إنزل المركب تانى واطلع بيه تانى أشان ايرف كام شوال جابته باشرى.

فنتدحرج مقهقهين فـوق الرمـال ونحـن نـردد بنفـس لهجتـه .. درورى تيرف كام شوال جابته باشرى .. يمكن باشرى دي هراميه يا اهـى .. مـين آرف .

* * *

إتو ذا النون .. إتو ذا النون ..

آه آه .. آبّا دول غاضب منى ، وإلا ما دعانى بـ ولد ياذا النون ..

ماذا أغضبه ياترى ..؟ في ذهني استرجع مـا كـان منـى منـذ أن داعبنـى آخر مرة .. أتلصص عن عصاه ..

ذا النون ياحمار ..

أوه .. الذنب عظيم يا ولد والعقاب حتما سيكون أشد ..

سقط قلـبي خوفـا، وأبـت ذاكرتـي أن تسـعفني بـالجريرة الـتي ارتكبتهـا وأغضبت جدي منى كل هذا الغضب، لكن لماذا كل هذا الخـوف وهـو لم يعتد على ضربي أو حتى لومي أمام الآخرين ؟.

– هوى وأبا دول .

– تعال هنا .. مشيت للدكه وحدك يا ولد ..؟

– ذهبت لبيت خالي محمود وهاب .

– ولماذا لم تفصح عن عدم رغبتك في السـفر إلى أبيـك ، بـدلا مـن أن تتعب خالك ؟

(معك كل الحق ، فماذا أقول ..؟)

- رد يا ولد .

- لأني ما تعودت أن أعصي لك أمرا يا جدي ..

قال وهو يهرس أذني بإصبعيه .. آه ياعكروت، بينما اعتلت ثغره بسمة حلوة .. ضمني إليه ودس رأسي في صدره واستطرد قائلا بصوت هامس .. والله يا ولدى ما كنت موافقا على سفر أبيك من أساسه، فلما سافر كنت أنت عزائي وسلواي .

آنجى - خالي وهاب قال لي : اطمئن ياولد أختي . جدك مابيسفرك.

ثم التفت إلى جدي وسأله : ولكن مع من ستسافر أمه ؟؟

قال جدي : ما عليك .. ما يمر أسبوع أو أسبوعان إلا ويسافر رجل أو أكثر من النجع ..

* * *

ذا النون .. إصحى يا ولد ياكسلان .

سلبنى صوت أمى من أحضان النوم الدافئ .. ما أن يعلو صياح الديكه حتى تجدها قد قفزت من فوق العنجريب إلى أرضية الغرفة الرملية .

أتثاءب .. أتمطى .. إلى أنفـى يحمل الهواء رائحة الشاي بالحليب .. أحبيته ، وأتلذذ بمذاقه .. إليه تهفو نفسي دائما ، فقد اعتدته صغيرا .. لا أحتمل الصبر حتى أغسل عن وجهي أثر النوم ، وأزيل بالماء خلوف صوم

الليل . أتعجل في نفسي أبادول لينهى صلاتــه حتـى نجلـس سـويا لنرتشـف الشاي.

– إسرع ياذا النون .. توضأ وتعال لنصلى جماعة.

أجرى إلى الحوش لأرش الماء على وجهي وأبلل يدي وظهري قدمـي .. صوته قوى ، عميق .. يجلجل في سكون الفجر .. الله أكبر .

هوووو .. هوور

إنه العواء الذي يطلقه جبـار. أكـبر صبيـة النجـع سـنا .. لـه قلـب مـن حديد، جسور .. شجاع .. وهو بالإضافة إلى ذلك عقلنا المفكـر .. يقـود ركبنا كل صباح من نجعنـا إلى نجـع المدرسـة ، ووراء ركوبتـه تنقـاد ركائبنـا وهي تأخذ طريقها في هدأة الصبح فـلا نسـمع سـوى وقـع حوافرهـا فـوق أرضية المدق ..

في جيوبنا ندس أكفنا، وأعيننا تدمـع مـن شـدة الـبرد النـازل مـع شـتاء الفجر القارس، والسماء تندي مطـرا رقيقـا يبلـل طواقينـا وأكتافنـا وبعـض صدورنا ،

ولأن جبارا يكبرنا ببضع سنين فإننا لم ننزعج لما رأيناه أول مرة يدس بيه شفتيه سيجارة رفيعة .. يشفط أنفاسها ، في نهم، ويزفـر دخانهـا مـن أنفـه وفمه، فتطل الدهشة من أعيننـا ، والتعليقـات والقهقهـات تعلـو خفيفـة .. مرحة ..

- أعوذ با لله من الشيطان الرجيم ..

- جن أم شيطان ..؟

- جن يركب أبوك .

- ولا جن ولا شيطان. هذا منخار البوسته عند مغادرتها الموردة.

ولأن ركائبنا اعتادت أن تترك قيادها لحمارة جبار فقد وجدنا أنفسنا ذات صباح نسير بمحاذاة الجبل خلف الدور ، وما كدنا نخلف وراءنا آخر بيت في النجع ونسير قليلا في المساحة الخالية الواقعة بين نجعنا ونجع الخميساب حتى خرج علينا ضبعان أغبران من وراء الجبل .. تسمرت قوائم الحمير بالأرض .. انتصبت آذانها الطويلة إلى أعلا واحتبست أنفاسها .. شهقنا خوفا ولم ندر ماذا نفعل . حتى الصراخ ضاع منا في هذه اللحظة ، وفجأة أخرج جبار من مخلاته إحدى كراساته .. أشعلها وراح يطوحها في الفضاء يمينا وشمالا فتزداد توهجا، نطقنا بالشهادتين .. شعرنا بأرواحنا ترد إلينا .. استطعنا أن نستنشق الهواء لما رأينا الضبعين يوليان الأدبار بمجرد رؤيتهما للنار .

- أشهد ألا إله إلا الله .. محمد رسول الله .

- ينعل أبوك يا جبار وأبو حمارك يا ابن الكلب .

- لماذا تأتي من هنا ..؟

كركع جبار ضاحكا وهو يقول : كان يمكنني أن أشير لهما على أي كلب فيكم فيأخذاه ويأكلان لحمه وينهشان عظمه مثلما تفعل الغولة في حكايات جداتنا وحبذا لو أشرت إلى هذا الجرو الأجرب.

أشار إلى سمسوم .. أصغرنا سنا .. قصير .. سمين كما السمكة التي تنتفخ بمجرد خروجها من الماء .. كان أول من أطلق لسانه سابا جبارا الذي أراد مناوشته قائلا : وربما بعد أن يأخذاك إلى هناك يأنفان التهام لحمك النتن .

سبه سمسوم ضاحكا : أبوك وأمك وجدك إدريس نُجد.

وانطلقت ضحكاتنا لتبدد لحظات الخوف القاسية التي عشناها عند رؤيتنا للضبعين .

* * *

أقسم جدى - أبادول - أن يبيت خالي - آبجى - محمود وهاب معه في الدار، فقال له عوض عليش: وا لله إنك مثل الصعيدى الذي ضرط عندما حمل عنزته ، فقال ناولني الثانية .. إن زوجتك عجوز كركوبه لا تستطيع خدمتك، فكيف بها لو أخذت صهرك معك ..؟ اتركه يبيت عندي .

صوب إليه جدي عينيه المختبئتين وراء تجاعيد وجهه الكثيرة طويلا ، وتنحنح في بطء ، ثم قال له متسائلا : وكيف با لله عليك حال المومياء التي

قالت عنها الحكايات والأساطير أنها عاصرت الملك أحمس .. هل تستطيع أن تعمل الشعرية باللبن والمسلى للإفطار أم أنك ستقوم بعملها ..؟

علت سماء الوسعاية القهقهات ، وكثرت التعليقات ، فانتظر آبجى وهاب حتى هدأت العاصفة وقال موجها الكلام لجدى : لا تنس ياشيخ أنها أختي .

فقال جدي للتو : يعنى أخت النحاس باشا ..؟

فعاد الصخب يعربد في سماء المجلس من جديد، وتمر الساعات حلوة صافية ، حتى نفاجأ بخروج الصواني فوق رؤوس النساء والفتيات، فنجرى إليهن لنحملها عنهن إلى مجلس الرجال لنوسدها بينهم، فيشمر محمد هلال أكمامه الواسعة ليجمع أمامه قطع اللحم والطيور ليعيد توزيعها على الصواني بالتساوي، وكذا يفعل مع اللبن الرائب - الكريد - الذي يحرص الكل على تناوله ليلا ، أما نحن الصغار فنجرى إلى صحن الجامع لنأتي بالدلايات والطسوت الصغيرة والصابون المعطر ، لنصب للرجال الماء على أيديهم لغسلها قبل تناول الطعام ، ونهرب منهم بعده لنتحلق الصواني ونجهز على ما بقى منهم، مبتدئين بالتهام اللحم وقطع الدجاج ثم نثنى بالإدام، ولا يستغرق كل ذلك سوى دقائق معدودة نجرى بعدها إلى الدور لنأتى بصواني الشاي ونتحلق من جديد أكوام الرجال .

- أعرفت يا وهاب أن صهرك العجوز هـذا ، وأشـار إلى جـدي، يفـتر ثغر خالي - آبجى - وهاب عن بسمة خجلي ويلوذ إلى الصمت.

فيقول جدي - أبادول - : إترك وهاب مع الشـاي بـالحليب الـذي لا يذوقه إلا عندنا .

ها ها هاى ..

يحتد خالي وهاب قائلا لجدى : الله يرحم الأيام التي كنتم تطوفون فيها حول بيوتنا وأنتم ترددون مثل نساء الحلب .. كرامـة لله ياسـت .. كرامـة لله ياست.

ها هاى .. هاها هاهى.

وقبل أن يوغل الليـل ويجثـم على صـدر الكـون ويتسـرب الرجـال إلى دورهم، قام جدي - أبادول - واقفا ، فوقـف خـالي وهـاب، كمـا وقـف الرجال الأصغر من جدي سنا .. تأبط جدي ذراع خالي وقال له : هيـا يـا محمود.

قال عوض أحمدانى لجدى : شد الغطاء عليك زين ياعجوز ..

التفت إليه جدي قائلا : الحزن كل الحزن علـى مـن ليـس لـه غطـاء يـا عوض .

* * *

قال جبار قبل أن نلج حدود نجعنا أثناء رحلة عودتنا اليومية من المدرسة :

الليلة نبدأ سرقة البطيخ .

سكت قليلا ثم استطرد قائلا : نتقابل هناك وراء بيت شامية محمود .

بيت شامية محمود في آخر النجع ، بعده مباشرة الخـــــلاء ..

مساحة واسعة، شاسعة من الأرض الصخرية، تحوطها الجبال من الغرب وبحر النيل من الشرق ، أرض ضيقة، جهمة تمتد وتمتد حتى أول بيت في نجع البربا .. لا أعرف كيف تطيق شامية محمود العيش بمفردها في هذه الدار .. يقال أنها تعاشر ناس النهر الذين يجيئون إليها ليلا بعد أن يهجع الناس إلى دورهم، ويعودون إلى النهر قبل شقشقة الفجر، ويقال أيضا إن حسين جراد رأى واحدا منهم بأم عينه يدخل دارها، وتأكد أنه منهم لما دقق النظر في قدميه فرآهما كحوافر البغال أو الحمير ، أما نصفه الأعلى فلا يختلف عن أجزاء الإنسان ، ويقولون أن المسكين ظل ثلاثة أيام كاملة غائبا عن الوعي . عيناه مفتوحتان عن آخرهما وكذلك فمه .. صرخت زوجته ملتاعة وهى تضع يسراها على رأسها، وتضرب ظهرها بباطن اليمنى .. بيوبيو، فشد أخوه الرحال إلى نجع البوسته وجاء بالشيخ إبراهيم دجر – الأعمى – ليقرأ في أذنه بعض سور القرآن، واشترط لقرآة سورة يس أن يأخذ جنيها كاملا ، دسه في طيات ملابسه قبل أن يبدأ في القراءة .. سبته

وسيلة عثمان زوجة حسين جراد وهي تناوله الجنيه : إلهي إك دبر وودجر . ووجرى - ربنا ياخدك أيها الأعمى القذر ..

شعرت أنني سأموت رعبا لـو ذهبـت إلى هنـاك قبـل الميعـاد .. وبقيـت وحدي ولو لبضع ثوان ، الأفضل أن أذهب متأخرا، ولكن ما العمل لو نفد صبرهم وانصرفوا قبل أن أذهب إليهم ، الأفضـل أن أذهـب مـع عجـب أو عاشور أو علوبه ، ولكن كيف ساقنع جدى - أبادول - بان يتركني ألعـب إلى ما بعد صلاة العشاء ..؟

أقول له إنني ذاهب إلى بيت عمتي بحرية النور لأذاكر مـع ولدهـا..لا .. لا .. لن يقتنع . لماذا لا أتناوم حتى يغط هو في نومه ثم أنسـل خارجـا مـن الباب الغربي ..

قلت لجبار : نتقابل بعد صلاة العشاء بساعة أو نصف ساعة .

مسحنى بعينيه مرتابا ثم قال : أنت خائف وأظن أنك لن تجيء؟

قلت : سأجيء حتما . لكن ليس قبل أن يستغرق جدي في النوم .

استطلع جبار الآراء بعينيه فقال الجميع : موافقون.

وبينما كنا كذلك حمل إلينا ماء النهر أصوات رفقتنا في الشرق.. أرسلنا أعيننا إلى هناك فلم نتبين ملامحهم، إذ امتلأ النهر عن آخـره، فاتسـع عرضـه وبعدت شواطئه، لكننا لم نتردد في جذب مقاود ركائبنا بشده، ونـنزل مـن

على ظهورها لنوثق أرجلها الأمامية، ونصطف عند الشاطئ، في مواجهتهم، لنصيخ السمع ..

جبار هوى هوى .. عجب هوى هوى .. علوب هوى هوى[1]

تلتقط آذاننا أصواتهم فنتعرف عليهم، وسرعان ما تنطلق حناجرنا بأسمائهم .. حسين هووى هوي .. زمراوى هووى هوى.. عباس هوى هووى . فيجيبوننا : هووى هوي، فنروح نسألهم عن صحتهم وأحوالهم وأخبار نجعهم ، فيسألوننا بدورهم عن صحتنا وأخبار الناس في نجعنا، لكن سرعان ما ينقلب الحوار إلى عراك كلامي وسباب.

إسمعوا يا كلاب، يا أولاد النجع الأجرد الكالح ، فيردون إلينا سبابنا، لاعنين آباءنا ونجعنا بعبارات طويلة بذيئة، تحملها إلينا المياه البنية العفية، واضحة جلية، فنكاد نعرف قائليها من نبرات أصواتهم، ثم يسكتون قليلا ويصيخون السمع لالتقاط بذاءاتنا، وهكذا حتى نعود لتبادل كلمات التحايا والأمنيات الطيبة لناسهم ونجعهم :

الله يبارك فيكم ويجعل أراضيكم كلها خضراء ويحفظ آباءكم وأمهاتكم، فتحمل إلينا المياه كلماتهم الحلوة بالدعاء لناسنا ونجعنا وأرضنا،

(١) هوى هوي = حرف نداء يقابله في العربية حرف النداء يا ، وعند رد الطرف الآخر هوى هوى يكون معناها نعم .. نعم ..

ونستودعهم الله علـى أن نلتقـي في الأيـام التاليـة علـى خـير لنتبـادل نفـس الكلام، ثم نجرى إلى دوابنا لتجرى بنا إلى النجع.

اجتزنا المنطقة الخالية التي تفصل بين نجع المدرسة ونجـع الشـيمه فـأطلت علينا شواشى النخيل وقمم الدور المقامـة فـوق التـلال الصخريـة وشواشـى الذره التي تغطي شريطا ضيقا من الأرض بحذاء النهر، وفجأة تنطلق صرخـة تعقبها صرخات وولولات فتلتقط أعيننا رجالا ونسـاء يجـرون نحـو النهـر ، فوكزنا دوابنـا بأرجلنـا فراحـت تعـدو وسـرعان مـا أصبحنـا بـين الأكـوام الصارخة .. خلع جبار جلبابه وألقى بنفسه إلى الماء وتبعه عاشور وعجـب، ضربوا الماء بأيديهم وأرجلهم، وغطسـوا تحتـه، احتبسـت أنفاسـنا .. أكلنـا القلق .. لماذا غابوا ..؟ يا سـتار يـارب .. لكنهـم سـرعان مـاطفوا وبينهـم جثتها .. فتاة صغيرة .. في حوالي التاسعة من عمرهـا .. منتفخـة البطـن .. سبحوا بها إلى الشـاطئ .. تلقفهـا رجـال النجـع .. أمسـكها أحدهـم مـن رجليها ورفعها لأعلى .. لفظت من فيها كل الماء الذي ابتلعته وهي تغرق، ثم أرقدها على ظهرها وراح يدلك صدرها، بينما كان البعض الآخر يحـرك الهواء فوق رأسها، وسرعان ماتطـاير الخـبر في النجـع فجـاءت أمهـا، وقـد تمنطقت بشالها، تسبقها صرخاتها وولولاتها .. طمأنتها النساء وأفسـح لهـا الرجال .. أخذت رأس ابنتها في حضنها، وراحت تنادى عليها ..

زبيدة .. زبيدة ياحبيبتى .. ردي عليّ .. طمئني قلبي .. قولي إنك حية .. زبيدة يابنتى .. قلت لك مليون مرة لا تذهبي للنهر .

أخذتها عجوز إلى صدرها قائلة : إتركيها .. إنها بخير .. دعيها قليلا وستطمئنين بنفسك عليها .

استمر الرجل يدلك قلبها، بينما راح آخر يحرك ذراعيها لأعلى ولأسفل، إلى أن بدأت زبيدة تحرك أجفانها في بطء حتى أزاحتها عن عينيها، فانطلقت الزغاريد من أفواه النساء لتملأ سماء النجع، وتنطلق كلمات الشكر لخالق السموات والأرض، واهب الحياة، ثم تتجه الأعين لجبار وعجب وعاشور ..يأخذهم الرجال إلى صدورهم، وتنطلق الدعوات لهم من أفواه النساء ..

ربنا يبارك فيكم يا أولاد .. ويبارك في أعماركم . ويكتب لكم الخير ويوسع لكم في الرزق .. وتضعون أيديكم على شباك النبي ..

حاولت أم زبيدة أن تأخذنا معها إلى دارها حتى يجيء زوجها الشيخ عباس أحمدانى ، شيخ البلد من نجع العمدة ليقوم بشكرنا بنفسه ، لكنها أمام إصرارنا بضرورة الذهاب فورا إلى نجعنا خوفا من انشغال ذوينا، أومأت إلى صبي يقف بجوارها، فجرى إلى أقرب دار إلى النهر وجاء بأكواب الأبريج .. وظلت تلوح لنا وترسل دعواتها حتى خرجنا إلى الخلاء ..

* * *

جاست عيناي خلال الحوش والغرف المطلة على الباب الكبير ، المطل على بحر النيل ، ثم المندرة فالمضيفة، تيقنت أن أبادول - جدي - لم يعد من الأرض، جريت إلى المزيرة، ملأت بطني من مائها. تخلصت من نعلي اللذين أحالتهما حرارة الشمس إلى قطعتين من الخشب .. هاجمت أنفى رائحة لحم يطهى .. سرت على أطراف أصابعي إلى حجرة الديو-كا، كانت خدم الله زوجة مرسال العجوز قابعة أمام الكانون تنفخ في النار الخامدة تحت الرماد المتراكم ، يهب الدخان ليهاجم وجهها وعينيها فتسحان الدموع، تقلّب قطع الخشب المتقدة، بسيخ من الحديد لتزيح عنها الرماد.

اختبأت وراء باب الحجرة ، أطلقت عواء ممطوطا من فمي .. أووو ... أووو ، وتلصصت عليها ..

ضيقت حدقتي عينيها وقالت .. بسم الله يامهمد يارسول الله . مين دى .

أووو ... أووو.

ففوجئت بها تكركع ضاحكة ثم تقول : صوتك رفيع زي الهريم ياواد ماتوجا وهاب .. هئ هئ هئ .. تآلى هوى.

ناولتني كوب أبريج بالليمون، رحت أمتصه في تلذذ .. أتيت عليه ، قلت أشكرها : الله .. لذيذ جدا وإندى هدم الله .. يا أمى خدم الله .

قالت وبسمة حلوة تضيء وجهها الذي كرمشه الدهر : بكاشه زي أمك ياواد ماتوجا.

قلت والضحك يغطى وجهي : لازم تتعلمي العربي إنت والعم مرسال .

قالت مستفسره : أشان إيه ..؟

لم أجد جوابا فقلت متسائلا : أين جدي .. أبادول ؟

قالت : هناك .. في الأرض .

قلت متسائلا : هل سيبيت مع مرسال هناك ؟

قالت : لا

(آه آه .. إذن سيبيت هنا الليلة .. وعليّ أن أقاوم النوم حتى يستغرق فيه تماما ، ثم أنطلق إلى رفقتي) .

سألتني وهي تمعن النظر في وجهي : مالك يا ولدى؟

- أفكر في جدتي - أناو - متى ستجيء من المحرَّقة ؟

- جدك هايروه المهرجه الليلة ، يمكن يجيبه معاها بكره.

(ماذا .. جدي سيذهب الليلة إلى المحرّقة .. الحمد لله .. الحمد لله).

- لكن الشمس غربت، فهل يمكن أن يذهب جدي إلى المحرقة بعد ذلك ؟

ضاق صدرها من كثرة أسئلتي فلم تعرني التفاتا . جرجرت خطوي إلى العنجريب .. تمددت .. في بدني سرت الراحة .. تعلقت عيناي بالسـماء ، تحلت بردائها الرمادي المائل للزرقة الباهتة ، والمحلى بنقش النجوم .

(ولكن مـاذا لـو أصـر جـدي - أبـادول - علـى أن يـأخذني معـه إلى المحرقة؟

سيحرمني حتما من الانطلاق هـذه الليلـة مـع رفقـتي .. هـل يمكنـني أن أعتذر له . سيسألني : ماعاوز تشوف جدتك؟

بماذا أجيب ..؟ أتظـاهر بـألم في بطـني .. آي يـابطني .. آي يـابطني ، ينزعج أبادول ، ويأمر خدم الله العجوز بأن تغلى لي حرجلا وحلـف بـر . ويؤجل سفره إلى المحرقة غرب .. وبعد ..؟)

- ذا النون .. يا ذا النون .

- نعم .

- تعالي خدي الأشا لجدك .

- لجدى فقط .

- روهى ياشيطانه وكلى مآهم.

- خذى بالك زين، لن أجعل عم مرسال يذوق اللحم .

- هاليها تاكلك إنت إن شاء الله .

– إنه يلس أصابعه في الإدام، ويكبش اللحم في الظلام فلا نطـول شـيئا لا أنا ولا جدي.

فقالت ضاحكة : هي مهتاجة اللهمة أكثر منك .. إنـت لسـه صغـيرة، وبكره تاكلي لهمه كتير ..

رصت الأطباق فوق الكرج – طبق خوص كبير – ثم حملتها ووضعتهـا فوق رأسي وهى تقول : هلي بالك كويس .

ذهبت إلى جبار بحملي لأخبره أنني في انتظارهم هناك .. في أرض جدي – أبادول .

سألني : وأين سيبيت جدك اليوم ..؟

قلت : ربما يبيت في المحرقة ..

قال : ألست متأكدا ..؟

قلت : أخبرتني جدتك خدم الله بذلك .

تمددت على وجهه علامـات الفـرح، وهتـف قـائلا : هـايل .. انتظرنـا هناك. نظرت إليه مليا وتمتمت : لماذا كل هذا الفرح ..؟!

امتلأ مجرى النهر عن آخره بالمياه الطاميـة العفيـة الآتيـة مـن الجنـوب .. إذن فأيام الدميرة المليئة بالحركة قد جاءت، وستتبعها أيام انتظرناها طويلا.. كـل شـيء في النجـع سـيرتدي حلتــه الخضــراء .. الأرض .. الشــجر .. والبسمات لن تغيب عن الشفاه، أما فرحتنا نحن الصغار فـلا تعادلهـا أفـراح

الدنيا كلها .. سننصرف مبكرين من المدرسة التي نذهب إليها كسالى، خائفين، مرعوبين من قسوة ذلك المعلم، أحمر الوجه، أزرق العينين كما القطط ، الآتي إلينا من بلاد بعيدة بعيدة ، والذي يرطن طول الحصة بكلام لم نفهم منه شيئا ..

الحال والتمييز والممنوع من الصرف، وكلمات أخرى كثيرة ينثرها داخل مربعات وجداول يرسمها على السبورة .. و ..

قم يا ولد ..

ويختبئ كل منا في الجالس أمامه ، لكنه في النهاية يقف تعيس الحظ مرتعد الفرائص، زائغ العينين، غارقا في الصمت وكأن سهم الله أصابه في أم رأسه.

– لماذا تنظر إلى هكذا كالمعتوه .. إعرب .. لا تعرف .. إذن مد يدك . ويدس الأحمر قلمه الكوبيا بين أصابع الولد ثم يهوى عليها بمسطرته الطويلة السميكة .

آآى . آآى.

قال جبار : اليوم نعوم في البحر بعد أن ننتهي من حكاية البطيخ.

سألته : والعلامات التي رسمها الأستاذ في باطن أرجلنا ..؟

قال : لا تخف .. لقد أحضرت نفس اللون من وراء الجبل ، وسوف أعيد لكم رسم الأشكال نفسها ، فلا يعرف أحد أننا نزلنا النهر، ولأنني

فشلت ليلة الأمس في حفظ سورة الانشقاق وددت أن تستعصى على كل رفقتي، سألته في لهفة : أحفظت سورة الانشقاق ؟؟

قال : حاولت لكنى ما فلحت.

قلت : إذن جهز أصابعك للقلم والمسطرة .

نظر طويلا إلى أصابعه، لكنه سرعان ما قال : اليوم ننزل البحر من أمام أرض جدك ويحصل ما يحصل باكر ..

* * *

تلتقط أذناي وقع أقدامى .. كنت أهرول حتى لا يفاجئني الليل بسكونه وظلمته، وغموضه، ورهبته التي تنتشر على النجع بمجرد أن يبسط عباءته السوداء .. تشتد دقات قلبي وتعلو كلما اقتربت من البربا – المعبد – خفت أن يعترضني الكاهن الذي تحول إلى حمار في الحكاية التي حكتها لي جدتي – أناو – ذات ليلة مقمرة قبل أن يأخذني النوم إلى رحابه .. من البعيد تطل على جدران المعبد وأعمدته الضخمة .. تجذر الخوف في رأسي .. انزرع داخلي ، لماذا لا أجرى ؟ نعم .. حتى لو اندلق ما في الصحاف على رأسي .. لا يهم .. لكن الكاهن المسحور يمكنه أن يخترق الجدر ، وتطولني قوائمه القصيرة في خطوتين .. إذن ما العمل ..؟

ذا النون .. ياذا النون.

أخ أخ .. من أين يأتي هـذا النـداء ..؟ ليـس أمـامي أحـد .. إذن فهـو ورائي أو على يميني .. أخاف أن ألتفت فيفاجئني من شمالي .

– إيه يا ولد ياذا النون.

النبرات لخالي مجيد .. لا لا . ليس هو .. إن لهذا الحمار اللعين قـدرات فذة في تقليد الأصوات .

– هل أصبت بالطرش يا ولد ؟..

يقترب منى فلم أجد بدا من الالتفات إليه . اجتـاحتني الفرحـة لمرآه .. قبضت كفه على كتفي .. هزني . حكيت له مخاوفي فاسـتغرق ضاحكـا .. في حيرة رحت أنظر إليه ..

– هذه مجرد حكاية يا أهبل .

– مجرد حكاية ..؟

– تقولها الجدات للأطفال ليلا ليناموا

هدأت نفسي لما استغرقني الحديث مع خالي مجيد حتـى أدركنـا الخص الذي أقامه جـدي على رأس أرضـه .. تقرفصنـا حـول صحـاف السـوريد واللحم واللبن الرائب .. بسمل جدي وهو يشمر عن أكمامه وقال :

الدنيـا ظـلام ، فإيـاكم أن تعبـث أصـابعكم في الإدام وتـأكلوا اللحـم وتتركوني وولدي نخرج من المولد بلا لحم يا أولاد اللئام.

تمزق قهقهاتنا صدر الصمت الموحش الغارس مخالبه في صدر الكون من حولنا .

قال خالي مجيد : والله ما يعرف طريقها في الظلام إلا هذا المرسال، الذي سيخبئها ليأكلها مع أخيه عبد العال.

هأ هأ هاااى.

وتستمر المحاورة المسجوعة سجالا بين جدي - أبادول - وخالي - آنجى - مجيد إلى أن يخسرها من يكسر السجع، أما إذا استمرا حتى يجيء مرسال بالشاي فإنهما يتفرغان لارتشافه بتلذذ وعلى مهل، ثم ينصرف جدي إلى أرضه ليكمل أعمالا لم يتمها، أو ينصرف إلى الدار ليزاول طقوسا اعتادها .

على الرغم من أنني أحب السويعات التي أقضيها مع جدي - أبادول - إلا أن القلق بدأ يساورني ويأخذ بخناقي، فرحت أتطلع إلى الطريق، وأرهف السمع على التقط أصواتهم .. أعرف أنهم سيجيئون لننزل إلى النهر، لنعيش سويعات مرحة في أحضان مياهه، لكن متى سينصرف جدي ..؟ إنه يجلس مطمئنا، و لم تبدر منه بادرة على قرب انصرافه .. لو قضى الليل هنا فسأحرم من هذه المتعة التي لا نعيشها إلا في أيام الدميرة - الفيضان . وكأن جدي قرأ ما كان يدور في خلدي فهب واقفا بعد أن شفط بق الشاي الأخير من كوبه ، ثم تأبط ذراع خالي مجيد، وولى وجهه شطر النجع وهو

يوصى مرسالا بي وبثمار البطيخ المتناثرة في الأحـواض الراقـدة تحـت ضـوء القمر. مرسال يا نُجد .. دير بالك واسمع زين .. مـا تسـمح لعينيـك تغفـل عن البطيخ أبدا ، ولا عن ولدى هذا – وأشار إليّ – غطه زيـن بـالحرام ثـم تفرغ لحراسة البطيخ. لو سرقت بطيخه واحدة فسـوف أعلقـك علـى هـذه الشجرة الشاهدة على جدك إدريس نجد .

تكدر وجه مرسال ، تكرمشت بشرته فبات كتلـة مـن التجـاعيد.. زام غضبا .. م م م . ثم قال بصوت كالمواء ..

– يهرب بيتـه .. كـان يـوم إسـود وا لله الأظيـم .. الإيشـه مـآك بـأت آذاب .. الموت أهون .

كركع جدي ضاحكا وقـال : الموت أيهـا العجـوز الفـاني مـا عـارف طريقك وإلا فأخبرني با لله عليك عن سبب واحد لبقائك على قيـد الحيـاة للآن وأندادك قد ماتوا من زمن طويل ..

ضحك مرسال فانبسطت صفحة وجهه، وانفرجت شـفتاه عـن أسـنانه اللؤلؤية، فذهب الخوف الذي انتابني من غضبه ..

وتظل ضحكات جدي وآنجى – خالي – تبتعد حتى يأكلهمـا الظـلام، ويبتلعهما في جوفه.

اعتليت العنجريب وقلت لمرسال : إحك لي حكاية ياعم مرسال.

قال : كوما كوما الله (1)

قلت : هيرن جكم الله.

وتركت مرسالا يسترسل في حكايته ثم تعمدت أن أرسل من حلقي شخيرا متقطعا، ثم عاليا متواصلا، بينما كنت أتلصص عليه من بين جفوني المطبقة فرأيته قد تمدد على أحد جانبيه.

أووو .. أووو

إنه عواء جبار .. أرنو إلى العجوز الممدد بلا حراك .. أتراه قد نام فعلا ..؟ في حذر شديد .. نصبت نصفي الأعلى .. ماذا أقول له لو ضبطني أغادر الخص ..؟

شعرت بالظمأ وسأذهب لأشرب .. لا لا سأقول له :

إنني ذاهب لأقضى حاجتي .. نعم .. نعم .. هذا أفضل، فقضاء الحاجة لا يكون إلا في الخلاء .

سرت على أطراف أصابعي .. تلتقط أذناي نداء خافتا: تعال .. تعال .. أتلفت يمينا .. يسارا ، لكن عيني لا تلتقطان أحدا.

- هنا ياطور وراء الخص .

---

(1) مفتتح للحواديت في النوبة الكنزية، يقابلها كان ياما كان .. أو صلوا ع النبي.

- ما هذا .. كلكم هنا مرة واحدة .. عاشور وعجب وعلوب وجبار .. حتى سمسوم ..؟

- أين جدك ..؟

- انصرف ..

- إذن سنبدأ الليلة بسرقة بطيخكم .. هيا معنا .. أسرع.

- لا تسرقوه كله بالله عليكم وإلا علق جدي مرسالا على جذع شجرة الكافور حتى يموت .

- هيا بسرعة .. ينعل أبوك لأبو مرسال.

مشينا إلى شاطئ النهر .. خلعنا ملابسنا، وقبل أن نلقى بأنفسنا إلى النهر قال الولد عجب : تعالوا وراءى.

تبعناه .. أشرفنا على العنجريب الممدد فوقه مرسال، أشار لنا أن ننتشر حوله .. راح يتقافز كما لو كان يؤدي رقصة بشارية، سرعان ما رحنا نقلده ونحن ندور حول العنجريب ونصدر أصواتا كما العويل .. لل . لل . لل . لل .. ييى يي يي .

أيقظته حركاتنا وعويلنا، وما أن وقعت عيناه على أشباحنا حتى دوت صرخة رعب من حنجرته، ثم غطى وجهه بالحرام الصوفي السميك وهو يردد : آآوز با لله .. آآوز با لله من الشيطان .. آآوز با لله يامهمد.

لكن سرعان ما تركناه وجرينا إلى أحواض البطيخ المتاخمة لبحر النيل، ووزعنا أنفسنا بحيث نبدأ من وسط الحوض وننتهي عند الشط، ويتولى أولنا قطع زر البطيخ ويقذفها لمن يليه، وهذا لمن يليه، وهكذا، حتى تصل للواقف عند النهر فيقوم بكسرها، فإن كانت بيضاء رماها إلى النهر وإن كانت غير ذلك وضعها بجواره.

(متى تنتهي هذه اللعبة السمجة .. ماذا سيحدث لو فاجأنا جدي الآن؟ وبماذا سيعاقب مرسالا ..؟ هل حقا سيعلقه في شجرة الكافور العجوز ..؟).

فجأة وجدتني أصرخ فيهم : كفاية يا أولاد الكلب .. ستقتلون مرسالا بفعلتكم هذه .

يسأل جبار عاشورا الواقف عند النهر: كم بطيخه الآن بجوارك ..؟

فيجيب عاشور : عشر.

فأزعق ملتاعا : كفى .. كفى .

ثم أجرى إلى عاشور حيث كومة البطيخ، ويلتف الكل حولها ... نختطف قطع البطيخ وندسها في أفواهنا ونزدردها في عجلة، فينزلق لبه الأسود إلى الأمعاء .

- ستطرح بطونكم بطيخا وتنتفخ، وتسيرون كالحوامل هكذا، هأ هأهأ هأ هاى.

ثم سرعان ما نلقى بأجسادنا الصغيرة العارية إلى الماء الذي كان يغرينا دوما بتياره الهادئ المتجه إلى الشمال ، فلا نجد مناصا من الاستجابة له ، مهما كانت التحذيرات ومهما كان العقاب، فالحياة كانت لا تطيب لنا بعيدا عنه . كنا لا نخرج منه إلا لنعود إليه.

فجأة صاح عاشور في ارتعاب : إلوم .. إلوم .. تمساح .. تمساح فالتفتنا مذعورين، وبسرعة تتابعت ضربات أيدينا وأرجلنا للماء حتى خرجنا إلى الشاطئ، ورحنا نتلفت يمينا وشمالا فلم نر شيئا .

قال عاشور : رأيت شيئا ضخما يشق الماء ويثير من حوله الأمواج.

قال سمسوم : إن شاء الله ياكلك تعبان ياشيخ ..

وألقى بنفسه إلى النهر ثانية .. سبح قليلا ثم صاح قائلا : من يستطيع أن يسبقني ؟.

فألقينا بأنفسنا إلى الماء ورحنا نضربه بأيدينا وأرجلنا حتى صرنا في البر الشرقي ، استلقينا فوق رماله قليلا قبل أن نعود إلى الماء ثانية.

قال عجب متسائلا : لو كانت السمكة التي رآها عاشور تمساحا حقيقيا فهل كان سيهاجمنا جميعا في وقت واحد ..؟

قال جبار : التمساح يضرب فريسته بذيله حتى يفقده وعيه ثم يبدأ في التهامه، ولا يمكنه ذلك إلا إذا ارتكز على رجليه الخلفيتين.

كنت أرنو وقتئذ إلى النهر ، تـراءى لي أن هنـاك تمسـاحا ضخمـا يشـق الماء ، كباخرة الري ذات القلابات القوية ، رآني أسبح وسـط النهـر ، فتـح فمه عن آخره ليبتلعني دفعة واحدة ، فأنزلق إلى بطنه سليما لأعيـش فيـه إلى ما شاء الله، ثم يلفظنى إلى البر، كما لفـظ الحـوت يونـس بعـد أن بقـى في بطنه أياما كما جاء ذلك في سيرة الأنبياء على لسان أستاذ الديـن .. ولكـن في أي بر كان سـيلفظنى ..؟ في حلفـا أم في واو أم في أحـد شـواطئ النيـل الأزرق التي لا أعرفها إلا على الخرائط .. سأهيم علـى وجهـي باكيـا حتـى يلتقطني أحد المارة ليبيعني في سوق العبيد ، وأصير واحدا منهم مثل جبار .. أعوذ با لله ..

وفجأة ألقى رفقتي أنفسهم إلى النهر ثانيـة فأسـرعت لأقفـز وراءهـم .. لحقت بهم فشتمت آباءهم لأنهم لم يعلنوا عن ذلك :

قال عجب : لقد أبصرنا ذئبا يزحف نحونا من الخلف ..

جرينا إلى ملابسنا .. قلت : أرأيتـم .. هـذه دعـوة مرسـال عليكـم يـا كلاب وقد استجاب الله له وأرسل إليكم هذا الذئب .

قهقه عاشـور عاليـا ، ثـم راح يتسـاءل : كيـف يتقبـل الله دعـاء هـذا المرسال الذي لا يعرف أصلا كيف يصلى .. تصوروا .. مرسال هذا يقـول في صلاته وهو واقف : مرسال يعرف ربنـا، وربنـا يعـرف مرسـال كويـس هالص .. الله أكبر ، ويركع .. سألته : ما هذه الصلاة ياعم مرسال .. أنـا

والله لم أر أحدا يصلي مثلك .. أنت على دين الإسلام أم أنـك تعتنـق دينـا آخر ..؟.

لم يأبه لكلامي . ولم يكلف خاطره للرد على سؤالي وقــام ليتــم صلاته .. مرسال يعرفك يا إلهـي ويخافك، ويعـامل النـاس بـالطيب .. الله أكبر .

قلت له : والله لو رأى المسلمون صلاتك هذه لأحلوا دمك.

السلام أليكم ورهمة الله .. السلام أليكم ورهمة الله .

تقرفص مكانه ونظر إلى مليا ثم قال : إسمع يا ولدى يـا آشـور .. إلهـي ربنا آرف كل هاجه .. آرف إيه اللي في جلب كـل واحـد .. وأنـا مسـلم وآرف ربنا إلهي كويس وآرف سـيدنا مهمـد كويـس هـالص، وربنـا إلهـي رهيم، كريم ما يرد واحد أبدا من بابه.

رنت قهقهاتنا تمزق سكون الليل، ثم قال عجب فجأة : هيا نعيد رسـم الأشكال التي رسمها الأستاذ على باطن أقدامنا ..

بدأ جبار عمله بهمة وهو يحذرنا قائلا : إياكم أن تقولـوا لأي شـخص أنني أعيد رسم الأشكال التي كانت مرسومة على أقدامكم بهذا اللون الذي أحضرته من وراء الجبل .

اقتربنا من الخص الذي يرقد فيه مرسال .. تركتهـم دون كلمـة وداع . سرت إلى عنجريبي على أطراف أصابعي ..

الحمد لله .. مازال العجوز نائما ، وربما يكون قد مات بالسكتة القلبية من شدة خوفه لما رآنا نتقافز حوله عراة فظننا عفاريت.

- كنت فين ياذا النون ..؟

(ياخبر إسود .. لم يكن الملعون نائما ..)

وقع قلبي خوفا ..

- كنت .. كنت .. آه كنت في الـ .

- أنا شفت كل حاجة ياملأونه (يا ملعونه).

(كل حاجة .. ياابن الكلب يازربون!).

- تشتمني ياتوره؟.

- لا .. لا أبدا ياعم مرسال.

- هادر .. الصباه رباه.

- أنت رجل كبير مثل جدي .. رجل طيب و ..

لم يهدأ لي بال حتى أقسم بشرفه أنه لن يخبر جدي - أبادول - بشيء .. ساعتها فقط جاءني النعاس وجذبني إلى رحابه.

* * *

أخذنا أماكننا أمامه بعد أن فحص أقدامنا وتأكد من وجود العلامات التي رسمها على بواطن أقدامنا بقلمه الكوبيا، واطمأن على عدم نزولنا إلى النهر .. لكن نظراته في وجه كل واحد منا على حدة كانت توشى بالشك، وفجأة وقف أمامنا وأشار إلى واحد منا وقال :

– إنت .. قم.

وقف المسكين كما العود الجاف ينتفض، كما لو أن رياحا هوجاء تلطمه من كل جانب.

– شرحنا في الحصة السابقة أشهر مدارس الشعر الحديث .. أذكر مدرستين منها ، وأثر كل منهما في حركة الشعر.

همس علوب وكان يجلس بجواري : مدرسة أبوك ومدرسة أمك يا ابن الكلب.

أطبقت بشدة على شفتي حتى لا يفضحني ضحكي، ويوضع القلم بين أصابعي وهات يا ضرب بالمسطرة الملعونة.

– تكلم ياطور الله في برسيمه.

وقبل أن يحرك المسكين ساكنا، ويبدو أنه لم يكن ينوى أن يحرك شيئا، ولا حتى الهواء الذي يحيط به، فوجئنا بباب الفصل يفتح ويندفع منه جدي – أبادول – للداخل وقد امتقع وجهه الذي غطته آثار غضب هائل جعلت جسده ينتفض من شدة انفعاله، وقف قبالتنا وانتقلت سبابته بيننا وهو يردد:

- هؤلاء الملاعين من صبية نجعنا سرقوا البطيخ من أرضي ليلة أمس، وسبحوا في الدميرة في حلكة الليل .

استشاط الأستاذ غاضبا - خرجت عيناه من محجريهما وهو يردد:

- إيه .. ماذا ؟ سبحوا في الدميرة .. كيف .. والعلامات المرسومة في أرجلهم ..؟! .. معقول؟!.

قال جدي مستفسرا : إيه يا أستاذ .. أين ذهبت ؟

قال الأستاذ : هه .. لا ..لأ .. لكن هل رأيتهم بعينك ياشيخ يسبحون في الدميرة أمس؟.

قال جدي : رآهم مرسال، جد جبار هذا. وأشار إلى جبار، ثم استطرد : ومرسال هذا لا يكذب أبدا.

(إيه .. مرسال هو الذي أخبرك؟ عبد .. ابن كلب .. زربون، لقد وعدني ألا يخبرك .. لكن متى كان لمثله وعد وذمة !!).

قال الأستاذ : بالطبع هذا لا يرضيني .. سأضربهم حتى الموت ..

قال جدي : إن ما يهمني أولا وأخيرا أن يموت هؤلاء الكلاب.. سواء ضربتهم أم لا وخصوصا هذا الجرو الحقير. وأشار إليّ وكل علامات القرف تكسو وجهه، ثم أردف قائلا وهو يولي خطواته شطر الباب الذي كان مفتوحا منذ دخوله منه :

أود أن أسمع قبل عصر هذا اليوم أنهم ماتوا فعلا لا قولا .. سلام عليكم.

وصفق الباب وراءه

ما أن ضربت حوافر بهيمته أرض المدق المؤدي إلى نجوع الجنوب وابتعد وقعها حتى استدار الرجل إلينا، وقد احمرت عيناه الزرقاوان ... اتجه نحوى مباشرة .. وقف قبالتى .. سلط عينيه على وجهي ..رأيت جسده يتطاول ويتطاول صار كمارد .. جحظت عيناه .. تطاولت ذراعاه .. صارتا كمدراتين. خطافين .. كلابية الأصابع .. حاولت أن أبتلع ريقي .. شعرت بغصة في حلقي ..

زعق فجأة تعال ورائي .

كل الأعين اتجهت نحوى .. ترجوني : لا تتكلم .. تتوعدني .. إياك.

سألني : من كان معك؟.

ارتجت أركانى لكنى لم أتكلم ..

– تكلم ياعُتل ..

ولوح بقلمه والمسطرة التي لم أر مثلها . كاد لساني ينفلت وينطق بأسمائهم .. جبار وعلوب وعاشور ، لكن كيف . لا .. لا .. لا يمكن أبدا .. مطلقا .. كيف هل جننت .. إن اعترافك بهم لن يعفيك من

العقاب، ناهيك عن ازدراء رفاقك ، ومقاطعتهم لك ومعـاقبتهم إيـاك، وإن هذا الذل سيرافقك طول العمر.

– ألا تريد أن تتكلم ؟؟ .. حسن.

ودس القلم بين أصابعي وراح ينهال عليها بسن مسطرته وهو يصيح : سأجعلك تتكلم أيها الفأر الحقير .

ساخت روحي . شعرت بانسحابها من جسدي فلم أعـد أحـس بوقـع المسطرة على عظام أصابعي الممدودة أمامي ، و لم أعد أصـرخ ألمـا .. امتـلأ غيظا . احتقن وجهه .. انحبس الـدم تحـت جلـده فصـار أحمر قانيـا، كـاد ينفلت من محبسه .. زعق .. صرخ : قل .. من كان معك أيها الشيطان .. قل .. قل.

تتابعت أنفاسه في سرعة كبيرة .. راح صدره يعلو ويهبط في جنـون .. توقفت يـده فجـأة .. اتجـه . في حركـة سـريعة إلى رفقـتي .. أشـار عليهـم واحدا واحدا وهو يردد .. تعال .. تعال ..

من سرق البطيخ من أرض الشيخ ؟ ومن سبح في النهر منكم ؟

كادت الجدران تتصدع من شدة صراخه، لكنها أبدا لم تترك أثـرا علـى وجوه رفقتي، إذ ظلت شفاههم مطبقة ونظراتهم لا تنبئ عن شيء .

– ألا تريدون أن تنطقوا أيتها الحلاليف ؟.

– لو كنا نعرف لأخبرناك .. قال الولد عجب.

- وهل هناك صبية في النجع غيركم؟.

- هناك الكثير من الأطفال والشيوخ.

- أنتم تكذبون.

ودس القلم بين أصابعهم وظل يضربهم حتى جاء الدور على جبار ، فقال له : أنت كبير العصابة .. أليس كذلك ؟

تساءل جبار في دهشة : عصابة ؟

- نعم .. عصابة سرقة البطيخ يا لص .

ارتسمت إمارات الغضب على وجه جبار ، وراح يردد بلا توقف : لا لا .. تقل ذلك .. أنا لست لصا .. لا تقل لي ذلك ثانية.

هاج الأستاذ هياجا شديدا وزعق قائلا : أتأمرني يا ابن الأبالسة..؟

وراح يضرب جبارا ضربا لم يضربه أحدا من قبل وهو يردد : تأمرني يا لص .. يا لص .. يا ... حتى أغرق العرق وجهه وصدره الذي راح يعلو ويهبط، وبدا كأنما يتنفس بصعوبة شديدة حتى كاد يسقط من شدة التعب ، وجبار صامد . صامت .. لم ينطق بكلمة واحدة تنفث عن ألمه ..

امتزج خوفنا على جبار من كبت انفعالاته إذ رأينا وجهه جامدا لا يعبر عن شيء .. خفنا على الرجل أن يسقط ميتا فجأة من شدة تعبه الذي تجسد في كرشه أنفاسه وشدة هياجه و .. بقينا كذلك حتى داهمنا رنين الجرس لينقذنا من كابوس رهيب كاد يزهق أرواحنا ..

جرجرنا خطونا إلى حوش المدرسة .. كانت بطوننا خاوية لكننا لم نجد رغبة في الطعام ، إذ كان الوجع يملؤنا، فرحنا نلوك بعض الكلمات البلهاء ..

- أو حجويه .. كونوا رجالا .

- إنا بالو أوندروميه . ولا يهمك.

وظللنا هكذا حتى أنقذنا رنين الجرس مرة أخرى معلنا بدء الحصة .. كالخشب المسندة تراصينا بجوار بعضنا .. مجرد أجساد منتصبة، وأعين مبحلقة في اللاشيء ، وكلمات كثيرة كثيرة تتلقفها آذاننا وتسربها إلى عقولنا غير الواعية ..

دق الجرس فأخرس الكلمات الكثيرة ، خرجنا مطأطئ الرؤوس إلى حيث ركائبنا المربوطة قوائمها .. فت في كياننا ما لقيناه من ذلك الرجل الأحمر ، غاب زعيقنا المرح الذي اعتدناه عقب انتهاء الحصص كل يوم .. صوت الأستاذ كرباج يسوط كياننا . يفت في عضدنا ..

عصابة .

لصوص .

كلاب .

بينما كانت أصابعنا وظهور أكفنا تخزنا لآلام الدنيا كلها فلم نستطع حتى أن نمسك مقاود مطايانا .. قطعنا الدروب زامين شفاهنا .. من أعيننا

يطل الحزن ممتزجا بالغضب .. رأينا أن نبتعد في طريقنا عن الناس فسرنا بحذاء النهر .

كان المجرى قد امتلأ عن آخره بالمياه الطامية، وبات التيار الهادئ المسافر دوما إلى الشمال هادرا .. دخلنا النجع يغشانا صمت الحزن .. لم يعرنا أحد التفاتا ، انصرف الرجال إلى السواقي يرممونها لتدور دواليبها الكبيرة لأيام قليلة آتية .. تصدر أنينها الشجى، وفي المساء يعلو نقيق الضفادع وصرير الجنادب، ونتوقف عن الذهاب إلى المدرسة لنساعد في أعمال الأرض .. ونستريح لأيام من عقاب ذلك الرجل الوحشي .

قال عاشور قبل أن تفرقنا الدروب إلى دورنا : نلتقي بعد صلاة العشاء وراء بيت شامية محمود .

اتفقنا.

وعرجت بدابتي نحو الدرب الصاعد إلى التلال الصخرية المتاخمة للجبال، حيث الدور الكبيرة القاعدة فوقها .. التقطت عيناي جدتي - أناو - آشا النور واقفة في وسط الحوش . قفزت من ظهر الدابة فرحا .. ارتميت في أحضانها .. قبلتني في جبيني . قبلتها في خدها، وقلت أسألها عن حالها : تيبرى أناو .. إنا هال ..

كانت في الدكة عند عمى عثمان النور الذي استقر هناك ليرعى تجارته التي رأى أن يبدأها هناك بالقرب من الأراضي المستصلحة حديثا.

قالت وهي تفرك أذني في لين : روهي لأبادول وبوسي إيدها وقولي لها أنا جلطانه .. جدك زعلانه منك هالص، ويمكن يسفرك مصر .

له كل الحق .. أليس كذلك . قلت لنفسي وأنا أبحلق في وجهها.

استطردت قائلة : خدي الأكل من هدم ا لله وروهى بيه لجدك واعملي اللي قلت لك عليها.

قلت لها : أستريح يا أنا.

قالت : لا.

فوضعت الكسب – طبق الخوص الكبير – المرصوص عليه أطباق الإدام على رأسي وأسرعت إلى الأرض ، يملؤني الحزن .. سأحرم من النهر. لن أعوم فيه بعد اليوم .. سيرسلني جدي إلى أبى هناك في بلاد ليس فيها نيل مثل نيلنا .. بحر النيل ، ولا ناس مثل ناسنا، ولا دور مثل ها الدور الكبيرة الواسعة .. سأحرم من صدر جدتي آشا النور ، ومن أطباق الشعرية باللبن والسمن البلدي والسكر ومن أكواب الأبريج بالليمون ، ومن رفقتي جبار وعاشور وعجب .. تساقطت دموعي حارة على خدي، و لم أدر أنني اجتزت الطريق إلا بعد أن رأيت الخص أمامي .

– ماذا يبكيك يا حمار.

وسدت الطبق الأرض .. طالعني وجهه . لا .. ليس هذا وجه جـدي . إنه وجه غاضب، مكفهر . وجه جـدي حلـو . بشـوش .. رنـوت إليـه .. أبحث عنه .

– إيه .. مالك ..؟

أخذت يـده بـين كفـي، قبلتهـا وأنـا أردد : أنـا غلطـان وأبـادول .. سامحني .. ستكون آخر مرة.

خطف يده مني وأشاح بوجهه بعيدا .. رحت أبكي وأمرغ وجهـي في صدره .. دفعني برقة وعاتبني بقسوة : تسرق بطيخي يا كلب بـدلا مـن أن تحرسه مع مرسال. قلت له : آخر مرة وأبا دول .

وأحطت عنقه بكفي وبللت دموعي خده.

مسح على رأسي وأجلسني بجواره، وظل صامتـا، فقـام مرسـال وجـاءه بكوز الماء .. تجرع منه جرعتـين، نـاولني الكـوز فنهلـت منـه حتـى هـدأت نفسي.

وضع مرسال الكِسب أمام جدل وجلس قبالته وهـو يـردد : صلـى ألى النبي مهمد .. آليه الصلاة والسلام ياشيه (يا شيخ) ..

رفع جدي أغطية الصحاف وهو يتمتم : عليه الصلاة والسلام.

انتشرت رائحة الإدام واللحـم. غـاصت الأصـابع وطفـت قابضـة علـى قطع اللحم .. ينتشر الصمت فلم نسمع سوى طحن ضروسنا للطعام. تظل

رحلات الأيدي المكوكية بين الأطباق والأفـواه حتى ينفـد اللحـم فتسـمح الأكف في بعضها قبل دعكها بالرمل وألسنتنا تلهج بالحمد للرازق الوهاب.

- جدي .. أنا ما عاوز أسافر لمصر المدينة ياجدى.

غرس عينيه في عيني. تنحنح ثم قال : بشرط أن تحرس أنت البطيخ، ثـم فرك أذني وهو يهم بالإنصراف وقال : انتظر هنا حتى يجيك مرسال.

ألفيتني وحيدا بعد إنصراف جـدي - أبـادول - ومرسـال .. أرسـلت بصري. درت حول نفسي .. الأحواض ممتدة أمامي حتى شـاطئ النهـر .. ثمار البطيخ ترقد في أحضانها محفوفة بأوراقها الخضراء العريضة.

غدا تجئ مركب شلالى وتحملها إلى أسوان .. هنااك، حيث يمتد الأفـق ويمتد حتى ينطبق على النهر .

السكون رهيب .. ينشر أذرعته على الكون حـولي .. القـرص الأصفـر القاسي بات واهيا .. انحدر نحو الغـرب متسربلا بأرديتـه الحمـراء ، تزفهـا نتـف الغيـوم البنفسـجية والرمادية إلى مرقـده .. تعـود أسـراب الطيـور إلى أعشاشـها قبـل أن يفاجئهـا الليـل بظلمتـه. سـقط القـرص وراء هامـات الجبال .. ارتدى سطح الماء الراقد في النهر وشواشى النخيل وأوراق الشجر وأحواض الحقل وكـل الأشـياء أرديتهـا الرماديـة .. لم تكـن ثمـة نسـمة .. سكنت كل الأشياء وهي تودع النهار.

في حيرة رحت أتلفت حولي .. من داخلي يتردد السؤال : ماذا لو لم يجئ مرسال ؟ بالطبع لن أستطيع مغادرة الأرض.

- ورفاقك الذين سينتظرونك هناك ؟

آه .. لكن ماذا وراءهم .. لماذا سنلتقي وراء بيت شامية محمود الليلة واليوم ليس خميسا ؟ . كان السؤال يتردد على طرف لساني ، فقد كان الحزن يخيم على الوجوه . كل الوجوه ، لكنه كان مختلفا عنه في وجه جبار الذي نأى بحماره مبتعدا عنا إلى بيت أخته دون أن يلقى السلام.

- إيا ياجبار . لست وحدك الذي أصابه هياج الأستاذ وانفعاله.

التفت إلينا وأشار إلى الأرض البراح الراقدة في صمت وراء بيت شامية محمود وقال : سنلتقي هنا بعد آذان العشاء إن شاء الله.

لابد إذن من أن يأتي مرسال الآن ..

أتى أو لم يأت فسأذهب.

وحدك ..؟

أووه.

ولكن .. من هؤلاء ..؟

في البعيد عند سفح الجبل يتحرك شبحان .. أحدهما طويل يتوكأ على كتف الآخر القصير .. ضيقت حدقتيّ عيني .. بالكاد استطعت أن أتبين القصير الضئيل.. ابن عمى عوض النور.. ما الذي جاء به إلى هنا، ومن هذا

الرجل..؟ آه .. إنه همد بداى – جارهم الأعمى .. ولكن أين سيذهب بـه هذا الولد ؟.. وفجأة وجدتني أصيح عليه :

أواد هوى هوى .. أوااد (ياعوااض).

لوح لي في صمت .. ظللت أرقبه حتى رأيته يجلس الأعمى على حجر كبير ويأتيني جريا .

قال وشقاوة الأطفال تتقافز في عينيه : يا أخى ابن الكلب داك كل يـوم يطلب منى أوصله بيته بعد ما تنتهي الونسه مع الرجال عند الجامع .. خدام أبوه أنا ..؟

قلت له : حرام عليك .. ماذا سيعمل المسكين لو خـرج عليـه ضبع أو ذئب..؟

قال : ليأكلوه .. فما عاد له نفع كما تقول زوجته دائما .

سلام آليك – السلام عليكم .

قلت فرحا : من .. مرسال .. السلام والرحمة عليـك .. سـأذهب إلى النجع مع عوض النور .

قال : مع السلامة ..

سرنا سويا عبر الأماكن المقفرة .. نتبادل الأحاديث بصوت عال لنطـرد عنـا الخـوف .. تركـني عنـد دارهـم .. قطعـت الـدروب الباقيـة إلى آخـــر

النجع .. التقطت أذناي هسيسا .. سرت على هديه .. ألفيتهم هنـاك وراء دار شامية محمود .

– الرجل فقد عقله تماما .

– لم نعامل بهذه القسوة من أى أستاذ آخر .

– أنا يقول لي لص وزعيم عصابة .. ؟

– لم يكن غضبه لسرقة البطيـخ .. ولكنـه عـدم فهمـه لبقـاء العلامـات بأقدامنا على الرغم من نزولنا النهر .

– سواء كان الأمر يتعلق بالبطيخ أو غيره ، أعتقـد أنـه لابـد مـن عمـل شيء .

– تعالوا.

واتجه عاشور صوب الجبل . لم يتردد عجب .. تبعه جبار ثم عليـش .. هرولت لأكون بينهم .

– إلى أين يا عاشور ..؟

أشار إلى صف الجبال الرابضة وراء الدور وهو يقول لجبار : أكيد معك كبريت .

وأخرج من جيبه بعض الأوراق راح يبرمها بين كفيه ..

سأله متلهفا : ماذا هناك وراء الجبل ..؟

قال : سنجمع عقارب.

سألته مضطربا : عقارب ؟!

لم يعرني التفاتا . امتلأت العلبة التي جاء بها عن آخرها بعقارب حرصوا على قطع أذنابها .. سدوها بغطائها .. دفنوها في الرمال على أحد جانبي المدق الموصل إلى نجع المدرسة، ووضعوا فوقها حجرا . ثم انصرفنا في التو على أن نلتقي فجر الغد في نفس المكان دون انتظار لعواء جبار.

كان عاشور أول الحاضرين .. لم يكن الحجر في مكانه .. ظللنا ننتظر حتى اكتمل الركب .. لم تتقدمه دابة جبار على غير العادة، فسرنا اثنين اثنين .. لم تلتقط آذاننا طوال الطريق سوى وقع الحوافر فوق المدق .. طالعتنا الأضواء الكابية المنبعثة من نوافذ المدرسة .. المباني الواطئة تسبح في غبش الصبح .. ربطنا مقاود مطايانا في أماكنها المعتادة .. في الفصل أخذنا أماكننا – التصقت عيناي بعاشور وجبار ... لم أنتبه لدخول المدرس إلا بعد أن صار في وسط الفصل .. خلع جاكتته التي يضعها دوما على كتفيه دون أن يدخل ذراعيه في كميها .. علقها على مقبض النافذة كعادته . استدار إلى السبورة .. انهمك في كتابة عنوان الدرس تلفت جبار يمينا وشمالا .. أومأ لعاشور برأسه .. تسمرت عيناه على باب الفصل ..

البدل تابع يذكر بعد إسم.

أخرج عاشور العلبة من مخلته .. شعرت بأنني لا أتنفس .. أفرغ ما فيها في جيب الجاكتة المعلقة على النافذة .

والبدل ثلاثة أنواع .. بدل كل من كل و ..

وانهمك كعادته وراح يردد جملته المأثورة بين فترة وأخرى : والتكرار ياعُتل يعلم الحمار الذي اعتقد يقينا أنه لـن يتعلـم .. ظـل هكـذا حتى دق الجرس، فالتقط جاكته ووضعها على كتفيه .. رآها بعض الصبية ، صرخوا وهم يشيرون إليه . عقـــارب يـا أستـــاذ .. عقـارب. يـا ..التفت غير مصدق .. صرخ مفزوعا آآآآآ.

رمى الجاكتة بعيدا .. سقط على كرسيه. اختلطت زرقة عينيه بالسواد .. غطى العرق وجهه . جاء المدرسون مهرولين .. التفوا حوله .. رشوا الماء على وجهه .. حركوا الهواء حوله .. جاء طبيب الوحدة .

عدة أسابيع عاشتها القرية في قلق .. العمدة وشيخ البلد وخفراؤها ، بل وكل رجالها . لم يهدأوا إلى أن بدأ الرجل يستعيد حالته الطبيعية .

من فعل ذلك ..؟

كل يوم يسألنا العمدة أو أحد رجاله ..

أصر على ألا يبقى في البلد يوما واحدا . هدد بالاستقالة إن لم يتم نقله من منطقة أسوان كلها.

قال الشيخ عباس شيخ البلد للعمدة : لو عرفنا الفاعل ينتهي كل شيء .

قال العمدة في إصرار : جبار .. مافي غيره . ذلك العبد الحقير ..

ثم صمت قليلا ليستطرد قائلا : ما يدهشني هـو أمـر أولادنـا .. كيـف رضوا أن يقودهم هذا الهلفوت .. ضروري يعرفـوا كيـف كنـا نتعـامل مـع آبائه وأجداده.. لو عرفوا ذلك لرفضوا مجرد السير معـه .. سـأعرف كيـف أعيد إلى هذا الكلب صوابه ..

وأومأ إلى سَمِل دول - شيخ الخفراء - صب في أذنه بعـض الكلمـات.
غادر على إثرها نجع المدرسة ومعه خفيران , دخلوا نجعنا متسربلين بالظلام.
اتجهوا إلى دار باسط نجد، حيث يقيم جبار مع أخته نوجوتـود وزوجهـا ..
دوت صرخات نوجوتود مزقت صمت الليل ..

كل النجع جاء لبيتها . قالت صارخة : أخذوه.

جرينـا إلى هنـاك.. قيـدوه إلى جـذع النخلـة الواقفـة في فنـاء المدرسـة الواسع .. جاء العمدة .. سوط ظهره حتى أدمى ..

قل ياابن .. لم فعلت ذلك ..؟

حبس الآهة في صدره لم ينطقها إطلاقا.

كل ناس النجع جاءوا .. كـاد الحـزن يقتلنـا عليـه ، لكـن سـرعان مـا تماسكنا لما التقت أعيننا بعينيه.

امتلأ الحوش بصبية النجوع .. تقرفصنا حوله . التصقت أعيننـا بوجهـه العنيد وعينيه الغاضبتين.

هل سنقعد هكذا عاجزين ؟

تبادلت أعيننا السؤال .. همس عجب في أذن أحمدانى كنـه. جـرى إلى دارهم الغير بعيدة .. جاء بسكين .. دسها في يد عجب. قام .. قام الصبيـة كلهـم أجمعـين ..التفـوا حـول جبـار . مزقـوا القيـد. في أحضاننـا أخذنـاه وابتعدنا .

سرى الخـبر فجـاء العمـدة غاضبـا .. زعـق متسـائلا : مـن فعـل ذلـك منكم ؟ صدرت أصواتنا : كلنا .

تزلزل كيانه .. حاول أن يبـدو متماسـكا .. قـال : اتركـوه وانصرفـوا أنتم.

قلنا : سنأخذه معنا .

قال : أنتم أولاد القبائل وهو ليس منكم ..

قلنا : جبار أخونا ياعمدة .

وأخذناه بيننا وزحفنا نحو الباب .. لم يتركنا صبية النجوع إلا عنـد دار باسط نجد .. أطلقت أخته زغرودة طويلة .. تلتها زغـاريد نسـاء النجـع .. تشابكت وتمددت .. حملتها نسمات الليل إلى كل الدور .. ملأتنـا الفرحـة فانطلقنـا نتواثـب في خفـة الطـير إلى ديارنـا لنغـرق في جـب النـوم اللذيـذ لنستيقظ بعد سويعات على صراخ وعويل يملآن النجع.

يا ساتر يارب .. إيه يا جده ..؟

قالت : إن الصراخ آت من ناحية بيت باسط نجد .

توجست خيفة .. جريت إلى هناك، كانت نوجوتود تولول وتحثو الرمال على رأسها .. وهي تبكى أخاها .

- إيه يانوجو .. ماذا حصل لجبار ؟

ظلت تولول .. فين مشيت ياخوي .. فين رحت ياخوي ..؟

جرينا شمالا وجنوبا .. شرقا وغربا .. جُبنا النجوع والقرى. الدكة والمحرقة والسيالة وكشتمنة .. كانت أحشاؤنا تبكيه، والنواح يعربد داخلنا .. أين أنت يا جبار .. أين أنت ياابن القبائل .. يازين الصبية ؟

تربع الحزن في أعماقنا بعد أن تحشأنا مرارة عجزنا ..

* * *

- مالك يا ولدى ..؟.

- مافى شيء .

- كلنا حزانى على جبار لكن ما بيدنا شيء .

- جدي .. أريدك أن توافق على سفري إلى أبى.

زعق أبادول دهشا : ماذا تقول .. تسافر إلى مصر ..؟

وراح يضرب كفا بكف وهو يردد : لا حول ولا قوة إلا با لله .. لعنة الله عليك يا عمدة .. إنت السبب وراء كل هذا البلاء .. ثم نظر إلىّ وقال : وجدك وجدتك هل سيهون عليك تركهما ..؟.

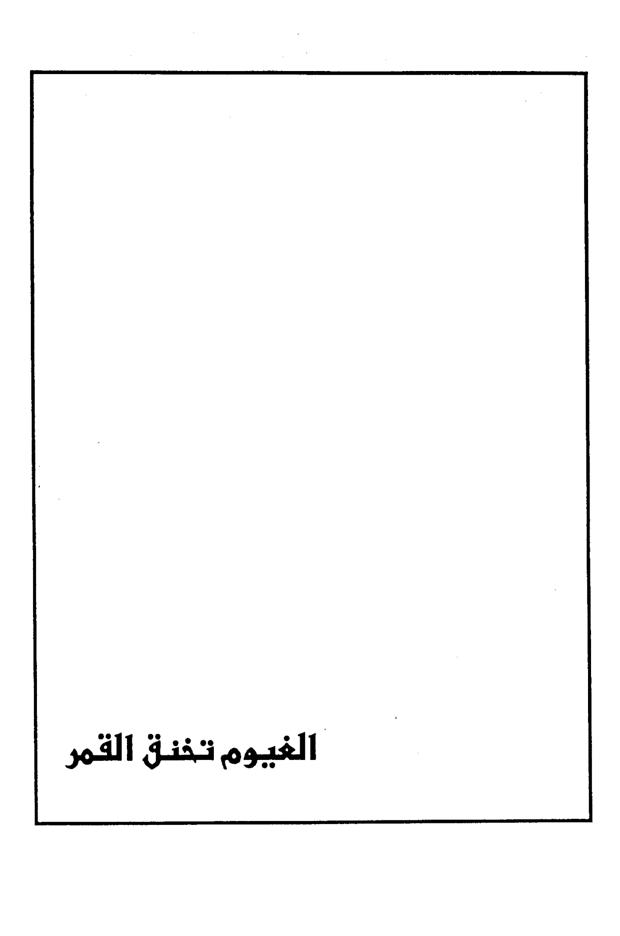
قلت : إن لم ترض فسألحق بجبار .

صرخ هلعا : لا .. لا .. أعوذ بالله .. تضيع يا ولدى ..؟!

ثم أخذني داخله، ونهنه قائلا : لا تقل ذلك مرة ثانية .. غدا يا ولـدى تجيء البوسته وترسو في الموردة وتركبها وتسافر غدا .. إن شاء الـ ..

وأشاح بوجهه ليكفكف دموعا انفلتت من مقلتيه .




الغيوم تخنق القمر

ازدهرت السباطات بحبات البلح بعد أن كستها حرارة الصيف أثوابها الحمراء .. تهب نسمات الليل الندية فتتمايس الشواشى وتتهامس .. تشابك سعف النخيل في الفضاء .. حجب أشعة الشمس عن النفاذ إلى الأرض الفضاء النائمة تحتها .. تمتد صفوفها بطول الشاطئ على امتداد النجع .

يجرى الناس هربا من سياط الشمس الحارقة التي تلهب الوجوه والأبدان، يحتمون بظلال الشجر والجدران ، ويبقون قيد الظل حتى تهن أشعة الشمس. لكنهم يتعجلون قيظ أغسطس ليطيب البلح ويمسي رطبا، وتضرب الشراشر أعناق العراجين لجنى الجرجوده والملكاب والأبرتمودة .. وبشوق تنتظر مجيء الغرباء ليشتروه .. كل عام يجيئون في غزو منظم .. تمتلئ بهم الساحات والمضايف القائمة كالحصون في الأرض البراح التي تفصل نجعنا عن نجع الأمبو جواب. وقبل أن تبتلع هامات الجبال قرص الشمس يكونون قد انتشروا في دروب النجع، وفوق المصاطب، ونسمع نحن الصغار مساومات ألفتها آذاننا ..

- لن أبيع بأقل من عشرة .
- وحد ربك ياشيخ .
- أكثير في النخلة عشرة ؟
- وهل هناك من باع بهذا السعر ؟

- أنا سأبيع به.

- تكلم أنت يا أخي واحكم بيننا .

لكننا لم نسمع مثل هذه المساومات هذا الموسم .. قالوا لما سألنا : إن النخل قد ضن ببلحه .. لم يعط إلا القليل .. أحس أن مياه الطوفان ستبتلعه، ذرف كل دموعه، فاحترقت أحشاؤه و لم يقو على أن يعطى مثلما أعطى في المواسم الفائتة . شهقنا .. بكينا، بينما تحتضن أعيننا الدور .. الأرض .. النخل .. مئذنة المسجد . شواشي النخيل، الفضاء، حبات الرمال ، ماء النهر الجاري المتلهف لأرض سوداء شققها العطش .. لينساب في باطنها، ويسقيها حتى الارتواء، هكذا عرفناه .. حنونا، فلماذا انتوى بنا الغدر ؟.

* * *

يرحل الغرباء بأجولة البلح المدكوكة، فتتبادل الأمهات الزيارات، ويسرى الهمس بين النساء .. الله جاب سيتزوج بتول، وبحر يخطب طمايه، وسلوم سيزف هذا العام، وستمتلئ سماء النجع بالزغاريد الممطوطة لليال طويلة ، فربما تكون آخر أفراح نشهدها قبل رحيلنا إلى الموطن الجديد هناك عند جبل السلسلة.

* * *

هي دائما تأتي من هناك ، من وراء النهر ، فتعلقت عينـا "سـلوم" بالـبر الشرقي ، يستحث القرص الأصفر الكبـير علـى النهـوض .. الحبـل اللوفـى الخشن انغرس في كتفه كاد يمزقه، والشرشـرة مستكنة في يـد أبيـه، وطعـم الشاي الممزوج باللبن والذي يشرب منه كوبين كل صباح مـازالت نكهتـه في فيه.

تحت النخلة العجوز وقفا ، أفلت الحبل من يده فأحدث سـقوطه صوتـا مكتوما .

قال له أبوه وهو يتطلع إلى قمم النخل .. هيا بسـرعة .. أبسـط الخيـش والأبراش .. كان قد ربط طرف الحبل في وسطه والطرف الآخـر في جـزع النخلة الـتي مسـحها بعينيـه .. تفـل في بـاطن كفيـه وحكهمـا في بعضهمـا وشفتاه تتمتمان بالبسملة و .. هب .. توكلنا على فـالق الحـب والنـوى .. في لحظة كان على قمتها .. التمعت الشرشرة وهـو يهـوى بهـا علـى عنـق السباطة فتهوى على الأرض محدثة دويا ، وتتناثر حبـات البلـح فيطـير إليهـا سلوم يجمعها في خفة ورشاقة وهـو يدعـو الله أن يـدس النعـاس في جفـون الصغار الشياطين حتى ينتهيا من قطع السباطات وجمع الثمار .

وما هي إلا بضع ساعة حتـى انفلتـت أشـعة الشـمس مـن بـين أجمـات النخيل .. خلعت على المرائي لونها الذهبي . تواتر خروج الرجـال والنسـاء والصبيـة والأطفـال مـن الـدور ، فـامتلأت الطرقـات جلبـة وضوضـاء ..

اختلطت الأصوات وتداخلت ، امتزجت في سعادة ظاهرة لا تتفق وصمت الكبار الذين مابرحوا يفكرون في إيراد المحصول الذي لن يفي بالمصاريف ولا بالتزامات قد تعهدوا بها ، فلاذوا إلى الصمت .

أما نحن الصغار فرحنا نتقافز كعهدنا بين سيقان النخيل ، نملأ الدنيا ضجيجا وصخبا، ونتقافز على حبات التمر المتناثرة من السباطات المتهاوية، نحشو بها جيوبنا، حتى تنتفخ، وما زاد ندسه في أفواهنا ، والنساء المتحلقات الأبراش وعليها حبات التمر يسبوننا ، وهن يضربن الهواء فوق رؤوسنا بسعف النخيل بعد أن يجردنه من أوراقه الخضراء المدببة ، فنجرى بعيدا ثم لا نلبث أن نعود لنحوم حولهن لالتقاط المزيد من التمر .

كل عام ننتظر الموسم في شوق يزيد عن مثيله في انتظار عيدي الفطر والأضحى ، فكلاهما ينتهي بزيارة آخر بيت تدخله أقدامنا ، أما موسم الجني فيمتد لأكثر من شهر. نسهر لياليه ملتحفين بقرص القمر والنجوم من حوله في حراسة البلح، أو نجرى إلى الأرض البراح خلف الجامع، نندس بين سيقان الكبار لنشاهد رقصات الكف والنقر شاد والأراجيد على إيقاعات الدفوف ولليال طويلة تتم فيها زيجات اتفق عليها كل ليلة من شهور بعيدة.. ليال تحرقنا إليها شوقا، نسأل عنها كل ليلة أمهاتنا حين تتوسد رؤوسنا أفخاذهن، بينما تفترش أجسادنا الأبراش بين سيقان النخيل وحولنا البلح المنشور فوق الأبسطة وأجولة الخيش ، ونحس بأكياس الرمل في

الجفون، ونقاوم النعاس ، ونحلم بمشاركة العرسان ليلى أفراحهم ولـو بـدس حبات الترمس والفول السوداني بين الأشداق .

* * *

قبل أن يرتقـي قـرص الشـمس سـلم السـماء تجـئ الفتيـات مـن الـدور وصواني الشاي تتوج رؤوسهن، يقطعن الدروب المتدلية إلى غابات النخيل، ما ان يقتربن حتـى يسبقهن الهـواء محمـلا برائحـة الشـاي، فنتواثـب إليهـن لنحملها عنهن .

تتناثر دوائر الرجال ودوائر النساء والصبية، ووسـط كـل منهمـا صينيـة شاي وطبق خوص تكومت فيه قطع الفايش .

يرين الصمت المهيـب، فبـدت أصـوات رشـفات الشـاي زاعقـة كحـد الموسى .

* * *

مزقت كلمات باشرى قلب الصمت .

– صدق حدسي .

– ماذا ؟

– إيه .. حزنت النخلات ؟!!!

– على زهرات شبابها التي سيلتهمها الطوفان.

– ...

- إيـ .... ـه .. ؟

- مالك ياباشرى ..؟

- الحمد لله.

- مهما حاولت فلن تستطيع أن تخفى حزنا ألم بك.

- وعد قطعته على نفسي لبحر جرود .. خطبت ابنته لولدي سلوم منذ شهور، على أن يتم الزفاف بعد الموسم.

قال عوض كتى : ليتزوجا ويعيشا معكما في الدار .. ما المانع ؟

قال باشرى متسائلا : يعيشون معنا ..؟

وانفرط عقد الدوائر قبل أن تقسو أشعة الشمس ، تفرقوا لتسلق النخيل وجمع الرطب .

* * *

سألته زوجته وهو يخطو مجتازا عتبة الدار إلى المصطبة : ألا تتمـدد قليـلا لتستريح ..؟

- ....

- لقد تسلقت نخلات كثيرة ، وأراك مرهقا.

كانت عيناه تنظران إلى اللاشيء، وشـفتاه تتمتمـان بكلمـات: يعيشـان معنا أم ننتظر للموسم القادم ؟ ولكن هل هناك موسـم آت ..؟؟ .. آه لعنـة الله على الطوفان .

ما أن أخذ مكانه على المصطبة حتى انتبه على صوته :

- سلام آليك باشرى هوى .

التقطته عيناه فتهلل لمرآه.

- أهلين شلالى .. مرهبا.

أشار إليه فحط جسده بجواره.

سأله : متى جئت من الدكه ؟

- اليوم.

- وماذا عن المحصول فيها ..؟

- العذارى حزانى والفتيان .

- آآآه .

وراح يهز رأسه في أسى ظاهر، فسأله الرجل :

- ماذا بك يا باشرى ..؟

- لن أستطيع أن أفي بوعدي لبحر جرود.

- لم ..؟!

- عائد الموسم غـ ..

- لا .. لا يا باشرى .. لا تحمل هما .. أترك الأمر لي .

سأله بلهفة : ماذا ستفعل ؟؟

قام شلالى معتمداً على عصاه .. قال وقدماه تدبان فوق الطريق وعيناه معلقتان بالمئذنة : سأنتظرك في الساحة.

* * *

كان صحن الجامع مزدحما على غير العادة ، تناثرت حروف تحيته في آذانهم، اتقطت عيناه بجرجرود بينهم .. زحف نحوه ، سأله عن الموسم، أجاب : لم نر مثله.

فقال : وباشرى متحرج منك.

اتسعت عيناه دهشاً، فاستطرد شلالى قائلاً : يريد أن يعرض عليك أمراً ويخشى أن لا يروقك.

- ماهو ؟

- ما رأيك لو تزوج سلوم وأقام مع أبويه ؟

كان حسين برسى يجلس ملاصقاً لشلالى ، فالتقطت أذناه اقتراحه، فقال متسائلاً : كم زيجة ستتم هذا الموسم .. أربعة ..؟ ثلاثة ؟ .. خمسة..؟ أيا كان .. نقيم الأفراح كلها في ليلة واحدة، ويتقاسم الجميع تكاليف هذه الليلة، وبالمبالغ المتوفرة نبني الدور الجديدة، كل دار لا تزيد عن حجرتين ومضيفة ومندرة .. ما رأيكم ..؟

افترشت الراحة صفحات الوجوه .. دس شلالى يده في جيبه وأخرجها ممسكة بعلبة معدنية، فض غطاءها .. كانت السجائر الماكينة متراصة،

متلاصقة .. أعطى واحدة لبحر وأخرى لبرسي، وهو يصيح فرحاً : حبابك عشرة يا برسي.

* * *

انتشر الرجال في الأرض البراح الممتدة ما بين ظهور الدور والجبل، يحددون مواقع الدور التي ستشيد لاستقبال العرسان ، وجرى الصبية إلى الجبل يجمعون أحجاراً يكومونها داخل المربعات المرسومة، وآخرون إلى حواف النهر يملأون أحمال الحمير طميا، وجاءت وسيلة بأول صينية شاي تراصت فوقها الأكواب، أقبلت نحو الجميع .. رف قلبها فأطلقت زغرودة قوية، فرحة .. خرجت على إثرها صوان من الدور القريبة، وغطى سماء النجع زغاريد النساء اللاتي جئن بمقاطف التبن لخلطه بالطمي فيتعاظم تماسك الأحجار .

همس باشرى في أذن "حسن كجوج" متسائلاً وهو يتلصص حوله بعينيه : ترى هل سيوافق هذا العبد على أن أؤخر له نصف أجره ..؟

قال حسن كجوج محتداً : يا أخي إنس حكاية عبد هذه .. صحيح أن أجدادنا جلبوهم من الجنوب، وصحيح أننا لا نتزوج منهم ولا نزوجهم بناتنا، لكنهم أصبحوا مننا .

قال باشرى : تعودنا أن ندعوهم بذلك ليس إلا.

فقال حسين : لا .. إنها وراثة ، فأبوك هو الـذي قيد عبد الجبار واد إدريس في جزع نخلته العجوز، وتركه لأشعة شمس الصيف لتجلده لأنه فقط ذهب إليه يطلب إحدى بنات قبيلته، ورحل المسكين بعدها إلى الشمال ولم يرجع إلى البلد للحين .

– يقال إنه تزوج جوربتيه.

– إخص عليه .. تزوج جوربتى (!) ..؟

– وكان جدك السبب .

وبينما هم كذلك التقطته عينا شلالى هائماً على وجهه ، فزعقت عقيرته : ووادريس هوى هوى (يا إدريس).

جاء الشيخ .. وقف قبالته ..سأله باشرى خجلا : تعلم يا إدريس أن محصول البلح هذا الموسم لم يكن كما تعودنا كل عام، وتعلم أيضا أننا نعتمد على عائده في عقد الزيجات، ولضعف عائده هذا العام رأينا أن نقيم الأفراح كلها في وقت واحد ، وفي الحقيقة أن هناك أمرا أود أن أعرضه عليك وآخد رأيك فيه .

قال إدريس دهشاً وهو يشير إلى صدره ، غير مصدق، ماذا..؟، ثم وهو يضيق حدقتي عينيه : تأخذ رأيي أنا ..؟ ثم يقول متهكما: ما هذا التواضع يا رجل ..؟ نحن عبيد وأنتم سادة ، والعبيد لا رأى لهم ، والسادة يأمرون .

(تقتلني يا ابن الكلب بكلامك .. لكننا سنظل سادة وتبقون عبيدا)

وران الصمت للحظات، قطعه شلالى قائلاً : وا لله يـا إدريـس لـو كنـا نعلم ما كان سيفعله جبار لكنا منعناه.

قال إدريس محتدا : كلكم تآمرتم عليه.

قال الآخر ملاطفا : إن قلبك أبيض مثل اللبن الحليب.

افتر ثغره عن بسمة حلوة .. ثم قال : وما هذا المر ..؟

قال باشرى : حددنا قطعة الأرض التي سنقيم عليها دار ولـدى سـلوم، ولا أستطيع إلا أن أنقدك نصف أجر البنـاء الآن، فهـل توافـق علـى تـأجيل النصف الآخر للموسم القادم ..؟

ردد إدريس مندهشاً : موسم قادم ..؟

ورمى عينيه للبعيد، لتجوس خلال الديار، الدروب، النخيـل، الـزروع، السواقي ..

ثم أردف متأوها : وهل هنـاك مواسـم آتيـة ..؟!! كـل شـيء سـيغدو مواتا هنا .

قال شلالى : دعنا نوهم أنفسنا بأننا هنا قائمون ، ونعيـش أفراحنـا قبـل أن يقتلنا الألم .

قال إدريس : كيف والطوفان سيجيء فاغرا فاه ..؟

أجاب شلالى : على الأقل ليكون لهم مقابلها هناك .

هز الشيخ رأسه ببطء وران الصمت للحظات ثم قال :

ليكن واعتبروا النصف الذي سيتبقى لى من أجر البناء مسـاهمة منـى في تكاليف الفرح ، فسلوم ولدى كما هو ولدكم .

قال الرجلان معا : أصيل يا إدريس مثل آبائك .

تمتمت شفتاه : أفاقين .. كلاب .

* * *

استقامت جُدر الدور الجديدة ، وانتهى النجارون من تركيب أبوابهـا ، فقمنا نحن الصغار بطلاء واجهاتها بالجير الأبيـض ، وقُـرب الغـروب رسمنـا فوقها مراكب وقلاعاً مملؤة بالهواء وطيورا تحوم حولها ونخيلا حبلى بالبلح ، بينما كانت مواكب النساء تترى من كل صوب .. كـل واحـدة تحمـل مـا جادت به نفسها .. طرحة مشغولة بالخرز، أو شُقة بيضاء في لون الحليـب، أو شال قطيفة .. أما الفتيات فقد تولـين تزيـين الجـدران بالأطبـاق الخـوص (الكرج) والأبراش والهوايات والمكرميات تتدلى من االأسقف ،

وقبل أن يتناثر صوت المـؤذن في الفضـاء لدعـوة النـاس لآذان العشـاء ، كانت كل الدور قد اكتملت زينتها لاستقبال سمانها.

* * *

ازدحمت الساحة بالرجال .. من النجوع المجاورة جاء الكثير يشاركوننا أفراحنا .. موكب العرسان يتجه نحو النهـر، يتقدمـه حملـة الفوانيـس، ومـن ورائهم العرسان يحوطهـم وزراؤهـم، حـاملوا لفـائف ثيـابهم الجديـدة الـتي سيستبدلونها بملابسهم بعد الخروج من مياه النهـر الـتي سـتباركهم ..حملـة

الكرابيج يضربون الهواء بكرابيجهم فتحدث عواء مكتوماً .. تقع قلوب العرسان خوفا من لسعات الكرابيج القاسية.

اصطف الجميع عند حافة النهر ..

قرص القمر كامل الاستدارة .. أرسل ضوءه الفضي .. ينعكس عند سطح الماء الغائم في مجرى النهر .. تكتسب الرمال التي تدوسها الأقدام لونه..

اصطف العرسان عند حافة النهر .. تتجه الأعين إلى السماء والشفاه تتمتم بالدعاء .. باطن الأكف تمسح الوجوه.

تفرقع الكرابيج فوق رؤوسهم تحثهم على النزول إلى النهر .. من حولهم يزعق الرفاق .. هيا .. انزلوا إلى النهر .. أرونا شطارتكم.

تكسرت صفحة الماء الساكنة لما ألقى العرسان أجسامهم فيه .. ضربت السواعد الفتية الماء .. غاصوا .. سبحوا وابتعدوا، ثم اقتربوا وتفرقوا .. غاصوا ثم طفوا، كل واحد في ناحية، فيتفرق حملة الكرابيج، وجرى الوزراء كل ناحية العريس الذي يحمل له صرة ملابسه، وبسرعة يرتدى العرسان أثوابهم، بينما أطراف الكرابيج التي لحقتهم تلهب ظهورهم، لكنهم يكتمون صراخ الألم حتى لا يلحق العار قبائلهم، ثم اتجهوا شطر القبلة وصلوا ركعتين لواهب الذكور والإناث، وقبل أن يرتدوا عائدين تقرفصوا

عند حافة النهر واغترف كل منهم غرفتين من مائه وشرب .. ثم استداروا ناحية الساحة .. انتظم الموكب في طريق العودة .. صدى إيقاعات الدفوف تحمله الرياح إلى آذانهم .. عالية .. مدوية، ومن الساحة تحركت ذبالات المصابيح متجهة ناحيتهم .. أحاطت بهم، دفعتهم إلى الساحة، انسكبت حروف الأغنية التي كان يشدو بها المطرب سحراً في الآذان ، فاهتزت الأبدان طربا مع إيقاعات الدفوف ، وبين المدعوين يدور الصبية بأطباق خوص عليها حبات الفول والأسلية (الفيشار)، وتجيء عمات العرسان وجداتهم بأواني اللبن، يحثونهم على شربه، فهو الفطرة التي اختارها سيد الخلق وهو في المهد، ثم يثنين بالتمر الذي كان يعيش عليه لأيام طويلة ..

وتتقدم عجوز تنثر العطر فوق الرؤوس، فيدفعها الصبية إلى الرقص فتتوسط الحلقة .. يعلو الإيقاع فتتثنى وتتقصع وتتلوى كدودة نشطة، وتلتمع حبات العرق على جبينها .. تتهالك، ويتعالى حولها الضحك وكلمات الثناء، وفجأة يتغير الإيقاع، يقفز الرجال إلى وسط الحلقة قفزات عالية ترتج الأرض تحت أقدامهم في رقصة الكف والنقرشاد .. تنسجم ضربات أكفهم مع إيقاعات الدفوف وصوت المطرب الصادح بأغنية قديمة: جديدة ..

تعالوا أيها العرسان

إلى دوركم الجديدة

التي بنتها سواعد إخوتكم

فهي تنتظركم في شوق

لتأخذكم في أحضانها

وتلفعكم بالحنان

فادخلوها آمنين

وإذا جاء الطوفان

اصعدوا إلى الجبل

فالنار فوق رمال أرضنا أجمل

من جنة في الشمال

النار فوق رمال أرضنا ، أجمل من جنة في الشمال ..

وتسافر الأعين في النجع .. تتفرس كل الأشياء، بدت غائمة من بين الدموع المترقرقة ..يسكت النقر على الدفوف .. تسكت كل الأشياء، والأعين مازالت مسافرة، لكن كانت لابد من أن تعود، فأطلقت واحدة زغرودة .. زغرودة طويلة ممطوطة، ومن البعيد جاءنا صفير عال ممدود، في البداية حسبناه صدى الزغرودة، لكن تكرر ، أصخنا السمع، فعرفنا أنه آت من النهر ..

قال واحد : انتبهوا .. إنه صوت رفاص.

تساءلنا نحن الصغار : وما الرفاص ..؟

ومن البعيد جاء يجري .. وقف متقطع الأنفاس .. كان سِمّل دول (شيخ الخفرا).

ماذا وراءك يا رجل ؟

قال : رفاص الري عند الموردة جاء بلجان الحصر .

صاح البعض : إذن فقد أزف الرحيل .

زعقنا متسائلين : الرحيل .. الرحيل ؟!

ولولت النساء : لطمن الخدود .. صرخن ..

لم نحتمل صرخاتهن فجرينا إلى المرفأ لنستعطف الرفاص ، طالعنا بمنخاره الأسود المتعال ، فعدنا نجرجر خطو الخيبة.

* * *

كل شيء في نجعنا صار له رقم .. قطع الأرض، النخيل، الدور، الزرائب، وحتى الناس .

القلق إخطبوط يغرس أذرعه في عنق النجع، والقمر مستسلم للغيوم، فلم تخلع الأشياء أرديتها السوداء.

تجرى الوجوه البيضاء – إدى جيلى – إلى الرفاص بعد أن أعطوا لكل شيء رقما .. نختبئ وراء الجدار لنقذفهم بالحجارة والسباب .. إدى جيلى جرجى، هنوى .. والرجال يقفون تـائهين، يقتلهم الغيظ .. من أفواههم انفجرت الكلمات ساخنة فـأبطلت انفجار الرؤوس : الكلاب الحمر .. خمسة وسبعون جنيها للدار .. أربع غرف وحوش ومضيفة ومندرة وزريبة، والنخلة بجنيه واحد يا كفرة ..؟!!!.

– والعمل ؟

– نرسل شكاوى.

– لمن ؟

– للحكومة.

– الرفاص هو الحكومة يابجم.

* * *

وقف جريان المياه إلى الشمال .. انتفخ باطن بحر النيل .. على شاطئيه فاضت مياهه .. تعددت أذرعه الشرسة .. ابتلعت الأرض الخضراء ، ونخيل السكوتى والإبريمي ونخيل الدوم .. تقترب من الدور ..

في كياننا تعملق الذعر فرحنا نجرى إلى الأرض الراقدة عند سفوح الجبال الجهمة، أخذتنا إلى أحضانها .. ماء بحر النيل الغول، مازال سادرا في

غيه .. متنا خوفا .. أفقنا فرمينا البصر إلى البعيد .. ضيقنا حدقات الأعين نبحث عن دور ذوينا في التنجار – الشرق – لم تر غير الماء .. عماتي دهيبه وضيفيه ، وأخوالي عجيد ونجد .. أين هم الآن .. هل غدر بهم بحر النيل أيضاً .. هل أخذهم الجبل إلى أحضانه، أم ابتلعهم النيل الغول مع الأرض والدور والنخيل؟ حولنا تنبسط الأرض الرملية ، وهامات الجبال تطل علينا، والحجارة الكبيرة المتناثرة حول الجبل حرقتها أشعة الشمس فباتت سوداء .. نقلناها إلى الأرض البراح وبنينا دورا جديدة .

ثم ماذا ..؟

مرة أخرى يتردد السؤال الحائر .

– نرحل إلى الشمال .

– الشماليون بنو الخزان فأغرقونا، إخوتنا هناك في خشم القربة، وحلفا، علت الأصوات .. احتدت فتقاطر السباب

وحدوا الله .

زعق شلالي فنبت الصمت .. تمدد .. أحسسنا بثقله فقمنا متبعثرين، نجوب دروب الأيام المتشابهة ، نجرى وراء ظل .. نتوارى فيه ، ندخن الحزن والسحاب والملل .

– النهاده إيه ..؟

سؤال بلا معنى ... طرحتُه لأطعن صدر الصمت الجاثم في وسط الحلقة.

– البوسته تأتينا الثلاثاء .

ترسو فنهرب إليها من الموات .. إلى السقالة تجرى أقدامنا الحافية المشققة .. تبحث عن طرد أو خطاب لأي واحد منا في النجع ، ليرتد إلينا الفرح الغائب ولو لساعة.

وقبل أن نعتاده تجرى البوسته .. تبتعد حتى تصير نقطة سوداء في الأفق.

لا .. لن أنتظر ثلاثاء آخر.

قالها بحر جرود فجأة، وأخذ ذيله في أسنانه وجرى إلى كشتمنه ، وركب البوسته .

وتوالت السنون فتباعدت ملامحه .. تآكلت .. رحنا نبحث عنه . . في صفحات الأوراق المطوية داخل الأظرف التي تجيئنا بالبوسته .. كل ثلاثاء تجئ لتخطف رجلا أو شابا من النجع وتلقى به بعيدا بعيدا في غياهب المدن التي لا يعرف الناس فيها بعضهم .

في المساحة الضيقة الواقعة بين الشفاه العليا وأرنبتي الأنف تتجول أصابعنا .. تتحسس الزغب النامي .. ونقيس غلظ أصواتنا لنتعرف على من

ستتغنى باسمه النداهة .. تلتقطه أذناه فيتعثر خطوه نحو الموردة، ويتكسر صوته وهو يردد : جاى لك.

وقبل أن يصبح على ظهر الباخرة يأخذه ناس النجع إلى أحضانهم وأعينهم تفيض بالدمع، وقبل أن يغلبهم البكاء يجرى إلى الصقالة.

تزعق الأصوات المعششة في القلب :

- لا تنسى عمك عبدون .. قل له إننا نريد أن يكتب لنا لنطمئن عليه .

- يقولون إن دهب يعمل في الزيتون عند أحد الخواجات .. طمنا عليه.

تطلق البوسته عواءها .. توووت ، تفرز دخانا أسود من منخارها العالي.. يحجب زرقة السماء .. تتجه مقدمتها نحو الشمال .. يلوح له ناس النجع بأيديهم وهم يرددون : آديلا .. آديلا وهبيبه .. إسلامجه . ثم يولون الأدبار نحو الديار الفارغة ، وأعين العجائز تتقافز فوق وجوهنا ، تتساءل عمن سيحل عليه الدور ، فتجرى أصابعنا - رغما عنا - إلى المساحة الضيقة الواقعة بين شفاهنا العليا وأرنبتي الأنف ، تتحسس الزغب النامي ، وتسافر أعيننا إلى البعيد.

صدر للمؤلف

- الهاموش	مجموعة قصصية	١٩٨٥ على نفقته الخاصة (نفدت)
- أنا الموقع أدناه	مجموعة قصصية	١٩٨٩ المركز القومي للفنون (نفدت)
- بين النهر والجبل	رواية	١٩٩١ الهيئة العامة للكتاب (نفدت)
- خور رحمه	مجموعة قصصية	١٩٩٤ هيئة قصور الثقافة
- عينان زرقاوان	مجموعة قصصية	١٩٩٥ الهيئة العامة للكتاب
- دوامات الشمال	رواية	١٩٩٩ الهيئة العامة للكتاب

كتب للأطفال

- حدثني لحن جميل	الهيئة العامة للكتاب
- القرش صاحب الكرش	الهيئة العامة للكتاب
- الحطاب الطماع	الهيئة العامة للكتاب
- أرنب ولا كل الأرانب	الهيئة العامة للكتاب

تحت الطبع

- أيام قبل السد	مسرحية في لوحات
- بحر الزين	روايات قصيرة
- كلاكيت آخر مرة	قصص



صدر الكتاب

تحت رعاية

النادى النوبى الثقافى

جمعية مشهرة برقم ٤٣٣٥ سنة ١٩٩٦م



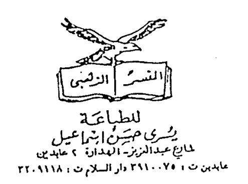
١٥ ش عبد العزيز جاويش – عابدين

القاهرة ت: ٧٩٦١٨٩٤

****

الترقيم الدولى/ I.S.B.N. 977-04-3219-9

رقم الإيداع: ٢٠٠٠/١٨٩٧٣


النسر الذهبي
للطباعة
يسرى حسن اسماعيل
شارع عبد العزيز - الهدارة ٢ عابدين
عابدين ت : ٣٩١٠٠٧٥ دار السلام ت : ٣٢٠٩١١٨